المقتطف

الجزء الخامس من المجلد السابع والتسعين

١ ديسمبر سنة ١٩٤٠ — ٢ ذي القعدة سنة ١٣٥٩

لماذا نحارب ؟

بحث نفسي مقابل

في بواعث القتال والاعتداء في طبيعة البشر

ليس الغرض من هذا البحث تبيان البواعث التي حملت هذه الدولة أو تلك على خوض غمار هذه الحرب الطاحنة. ولكن الغرض منهُ الرجوع بالأسباب الاجتماعية والاقتصادية التي من وراء الحروب الى أصولها في طبائع الناس. وأغلب الرأي في ما يلي للفريق من علماء النفس المجرّبين في الولايات المتحدة الأميركية

يدلُّ بمشاهدة القردة والأطفال وتجربة التجارب بهم ان هناك ضعة عوامل أساسية بسيطة تبعث على القتال واعتداء الأفراد بعضهم على بعض

وأحد هذه العوامل هو النزاع على امتلاك الأشياء المادية. كالنزاع على الطعام او الملابس او اللُّعب او الإناث

وما هو جديرٌ بالنظر في بحث هذا النزاع على المُلك ان المتنازعين قد يصلون في النزاع الى أقصى درجات العنف فلا تسلم الاشياء التي يتنازعون في سبيلها من تلف أو الدمار. فالمرأة تمزَّق قطعاً قطعاً. والاثاث تقطع شلواً شلواً. حتى لكأن الاعتداء نفسه يتملك النفس والجسم بعد اندفاعه فيعدو حتى حدود الأثرة المقبولة عادة إلى امتلاك شيء بين الى تدميره

ثم نوحظ في الاطفال خصلة ان الشيء الذي يكون موضوع النزاع بغية امتلاكه قد يكون في بدء النزاع و فيه مرموقاً من طفلٍ واحدٍ لا غير. فاذا تحوّلت هذه الرغبة فيه تعدّته الى غيره فيبدأ النزاع على شيء لم يكن مرغوباً فيه من احد الفريقين المتنازعين. ولكن رغبة الفريق الآخر يقظت شعور المنافسة على امتلاكه فكان النزاع

ولاحظ احد الباحثين السيكولوجيين بأم عينيه حوادث نزاع كثيرة كان النزاع عليها تافهاً بدئت من احد الأطفال فلما بدت رغبة آخر فيها حسبت في عينيه او عيني غيره وغدت سبب نزاع بين الفريقين. واذن فرغبة التملك قد تكون غيرةً تمة على مجرّد العقل ومعرفة قيمة الشيء الذي يراد امتلاكه

ومن بواعث الأعتداء ميل القردة والأطفال الى السخط على الدساس غريب في جماعتهم فالطالب الجديد في فصل من الفصول قلما ينجو من الغطيطة وبعض التسخرية في ايامه الأولى. والفرد الداخل على جماعة قلما ينجو من وخز وعضّ قد يفضيان به الى الموت احياناً

والغالب ان هذا السخط مردّهُ الى الغيرة وهي ترتدّ الى خوف المنافسة. ودليل ذلك في علم النفس التجريبي المقابل ان الاطفال لا يسخطون اذا دخل على جماعتهم كلبٌ وانما يسخطون اذا دخل على جماعتهم طفل غريب. والقردة لا تستثار اذا دخل على جماعتها جرذ او ماعز ولكنها تسخط اذا دخل على جماعتها قرد من نوعها

واخيراً هناك سببٌ اساسيٌّ بسيط يمت الاطفال على القتال وهو الشعور بالخيبة او ما يواجهونهُ من عقبات تصدُّ فيض نشاطهم. فقد يمنع الطفل من ركوب عجلة فصد الثره إما لأسباب طبيعية كالفرض او عدم ملاءمة الجوّ وإما لمعارضة من هم اكبر منهُ ولهم سلطان عليه. وقد يشتد شعور الطفل بالخيبة لعجزه عن القيام بالعمل الذي يتوق اليه إما لاعتلال صحته وإما لضعف دكائه. ان مثلاً من هذا القبيل يغضب ويتكدر ثم ينفس غضبهُ وتكدره بالاعتداء على غيره

واذا اتخذ القتال بين القردة فانهُ ينتشر انتشاراً سريعاً في الجماعة، ويجذب الى دوّامه افراداً لم يكن لهم صلة و شأن بالاعتداء الأول، ولا مصلحة لهم في استمرار هذا القتال. فكأن القتال مرض معد تنتشر عدواه بسرعة عظيمة

فما سرّ في ذلك؟

ليس من السهل تحقيق السبب

قد حاول بعض الباحثين ان يعرف بين القردة والأطفال من ناحية، وبعض الكبار من ناحية اخرى، في حالة الاعتداء والقتال، فقلما نجد فرقاً يذكر. واذا كان هناك فرق ما فكفة الاشتداد في العدوان هي كفة الكبار. والتاريخ ووحي الحديث يؤيد هذه النتيجة. أيد من هذا في القديم. فالتعذيب أصبح امراً [illegible] مرة أخرى في حياة [illegible] والحرب

التعذيب وأدواته الحديثة أصل وأدق وأوجع من أساليبه وادواته في عصور الظلام . ثم ان طرق التعذيب الفكرية أصبحت من الوسائل المألوفة في السجون والمعتقلات . وليس بين الحيوانات حيوان يستطيع ان يباري الناس في عنف عدوانه وايصاد كل باب للشفقة والرحمة دون عذاب المعتقلين وألمهم

وعندما ندقق في البحث نجد فرقين اثنين بين الاعتداء كما تمارسهُ الحيوانات والأقوام التي لاتزال على الفطرة ، والاعتداء كما يمارسهُ الكبار والجماعات المتحضرة في عصرنا. فالثاني يكون على السوم عمل الجماعة سواء أحزباً سياسيًّا كانت الجماعة أم طبقة دينية أو اقتصادية أم دولة ذات سيادة . بينما الأول يكون فرديًّا على الغالب

والفرق الثاني أن قدرة الكبار على التخيل والتفكير توجههم الى تأييد بية الاعتداء فتبتكر الأساليب وتتقن وتوضع النظريات الفلسفية والتاريخية وتؤيَّد. فالبردة والأطفال عندما يقاتلون لا يتعدون القتال الى تسويغه أو تفسير البواعث عليه . ولكن الكبار منتظمين في جماعات — سواء أأحزاباً كانت أم دولاً — ينشئون فلسفات ويشيدون علانيّ من المثل العليا قبل الشروع في قتل بعضهم بعضاً . فجماعة تقاتل في سبيل المذهب البروتستاني وأخرى لتحرير طبقة العمال أو لإملاء الثقافة التوردية على الناس ونشرها في العالم . ان الكبار يموتون في سبيل نظرياتهم

***

ومن أسباب الحرب ما يتجلى في بحث النزاع بين الطوائف البدائية التي لاتزال على الفطرة. في هذه الطوائف يتجلى ميل الى اسناد الحوادث — سواء أطبيعية كانت ولا مفر منها ، أم انسانية تقع بالاختيار — الى مشيئة شخص انساني أو الهي. فاذا عصفت عاصفة أو زلزل زلزال أو افترس بريٌّ رجلاً ، فالحادث يسند اما الى سحر تمارسه قبيلة مجاورة وإما الى غضب الشياطين أو سخط الآلهة . وكذلك يسند حسن الحال الى شخص من هذا القبيل

هذه النزعة التخيلية في الانسان تفضي الى الحرب . فالمتذمِّر في جميع الشعوب يميلون الى اسناد الشر الى شخص أو جماعة . وهذا مبدأ لا يستطيع أحد ممن يدرس السياسة ان يجهله أو يتجاهله . فالسياسي يحاول ان يُلصقَ تهم شرٍّ ما على خصمه السياسي . وكذلك ترى حركات اجتماعية تتخذ من أصحاب البنوك شخصاً معنويًّا تلصق عليه تهم الغصب بعد أن تسند اليه الشر الذي يعانيه الناس . وأخرى تتخذ من « اليهود » أو « الشيوعيين » ذلك الشخص المعنوي . وبعد ذلك يوصف باللؤم والخطر وما شاكل ثم يجمع هدفاً للاعتداء مبرراً في قوالب شتى

وذن النزعة الى الرد على الحيلة والعدوّ ، والميل الى اسناد الشر الى شخص أو

جماعة ، هي الأسباب الرئيسية لنزع بين الجماعات ، سواء أكانت أحزاباً أم طبقات أم دولاً

ان السواد الأكبر من الأطفال محرومون الوسائل اللازمة لاشباع ميولهم . والادلة متواترة على ان هذا المنع او القمع يفضي الى انفعال عنيف أساسه الخوف فالمقت ونتيجته الاعتداء . فالسخط والاعتداء اللذان يليان الخوف تطلق عليهما الاعتداء البسيط

والطريقة المألوفة في معالجة الاعتداء البسيط تفضي الى حرمان آخر . فيصفع الطفل او يشتم فتكون نتيجة العقاب ان يقوم في نفس الطفل نزاع بين الميل الى الاعتداء والخوف من العقاب

وهذا النزاع في الطفل مصدر من أهم مصادر الاعتداء في البالغ . فالنزاع نفسه نزاع بين ميل أصيل — وهو السخط من المنع او القمع — وبين الخوف من العقاب او الخوف من فقد حب من يُحب . وكلاهما أصيل كذلك . فالوالد او الوالدة في نظر الطفل مصدر للرضى وللسخط في آن واحد . ولذلك يميل الفرد في كثير من الأحيان الى حل النزاع بكبته اي اخفائه . ولكن مهما يتستر النزاع في النفس ويتخفى باستتار فوقها استتار لا يزول مطلقاً ولا بدّ ان يظهر مفرغاً في قوالب شتى . فالطفل الذي لا يستطيع ان يصفع اباهُ لانهُ أكبر منهُ وأقوى ويخشى عقابهُ يصفع طفلاً مثلهُ أو أصغر منهُ لأنهُ لا يخشاه . فنزعة الاعتداء المختفية في نفس الطفل تحوّل الفعل الى « بلطجي » صغير

وعلى النمط نفسه نجد الثوّار والفوضويين الذين يعملون على الحكومات المنظمة ، وكذلك الغلاة في الوطنية الذين يمقتون الشعوب الأجنبية ، ومتطرفي النظريات الاجتماعية السخطين على أصحاب البيوت ، او خصومهم السياسيين ، يشعرون في كهولتهم آثار نزاع نشأ فيهم صغاراً عن ميل الى الاعتداء البسيط كبتهُ صغر الوالد او نتيجتهُ ، فثار في النفس الى ان حانت لهُ فرصة الظهور

***

في كثير من حالاتنا العصبية التي تثيرنا او تقلقنا نجد في أحد أسلوبين للتخلص من القلق والنزاع الداخلي الذي يساورنا . أما الأول فهو أسلوب حربي ، وهو شائع ممارسة في الحياة السياسية . ومؤداه أن نلقي خوفنا او بغضنا او محبتنا من شخص الى شخص آخر . وقد يكون الشخص الآخر ممن نحب او نبغض أو نخشى لذاته ، ولكن اذا حوّلنا خوفنا او بغضنا او محبتنا من آخر اليه ، أصبح الشعور الذي يربطنا به عنده ملتهباً . فالخوف شديد يكاد يكون ذا ... والبغض شديد يفرد من ان يكون كرهاً ، والمحبة شديدة تبلغ مرتبة الهيام

وقد لا يقتصر هذا التحويل على تحويل الشعور الذي يملكنا من شخص الى شخص بل قد يكون تحويلاً من أشخاص الى هيئات او جماعات كالدولة أو الأحزاب السياسية فيها . وهذا التحويل يكاد يكون عامًّا . ولذلك قلما تخلو الحياة السياسية من النزاعات العنيفة

والتحويل يكون عادةً الى شخص أقل خطراً من الشخص المحوَّل عنه . فالطفل الذي يحوِّل غضبه من والده لأنه يخشاه ، يحوله الى طفل مثله أو أصغر منه لأنهُ لا يخشاه . والرجل أسهل عليه ان يمقت النظام الرأسمالي من أن يمقت زوجه ، وأسلم عاقبة له ان يندِّد بالشيوعيين من ان يندِّد بالشركة التي يعمل فيها . وبهذه الطريقة ، طريقة التحويل يقل الخوف والقلق ولكنهما لا يزولان ، وبذلك تزداد سعادة المرء زيادة متفاوتة

فاذا نقلنا هذا القول من ميدان حياة الفرد الى ميدان حياة الجماعة بيَّنا أصلاً من أصول الاعتداء الدولي . فالاعتداء في الكبار يكون على الغالب ناحية من نشاط الجماعة . وبعض الجماعات لهُ القدرة على ان يجذب اليه ولاء الاعضاء فيوجه سخطهم وحقدهم واقدامهم على القتل ، توجيهاً خاصًّا بأسلوب التحويل هذا . فجماعة الوطنيين الاشتراكيين وجهت سخط اعضائها وحقدهم الى اليهود والشيوعيين . أما السخط على الأول فلم ينقض وأما السخط على الشيوعيين فتقتضي الأحوال السياسية كتمانهُ وكونه الآن

ثم هناك أسلوب آخر لابدَّ من تقصيه لفهم طبيعة الفرد والجماعة . وهذا الأسلوب مردُّه الى التخيل كذلك . ولكنه تخيل من نوع آخر . وبه تتخيل الناس متصفين بصفات نأبى ان نعترف بوجودها في طبيعتنا

فالنفس بحسب رأي علم النفس الحديث ، ولاسيما مدرسة فرويد وما تفرَّع عليها ، ثلاثة أجزاء ، الجزء الناقص المغمور بالظلام وفيه الرغبات والغرائز الأصلية ، والذات وهي التي نعيش بها في هذه الدنيا ، والذات العليا التي تعمل عمل الرقيب أو الضمير المحاسب

ونحن كثيراً ما نحسب الناس أشراراً بفعل بواعث مسيطرة على طبيعتهم من ذلك الجزء السفلي . ولكننا في الوقت نفسه نأبى أن نعترف أن هذه البواعث لها وجود في كياننا الخفي أو أنها تؤثر في ذاتنا . ومن ناحية أخرى نحسب أن ذاتهم العليا تدقق وتحاسب على وجه لا تقيمه ذاتنا العليا في محاسبتنا

ومن الأمثلة التي تضرب على النوع الأول من التخيل أننا كثيراً ما نجد من هو دسَّاس بطبعه الخفي يعتقد أن جميع الناس يحيكون لهُ المؤامرات ويدسون الدسائس . أو من هو خسيس شحيح في عقله الباطن ، ثم يقضي الحياة زاعماً ان جميع الناس أخساء أشحاء

ومن الواضح في هذه الأمثلة أن الفرد يزعم [illegible] أن يعاملهم

أو انهم يسيّرون ببواعث وقوى ،هي في الحقيقة البواعث والقوى التي تحركه وتسيره. فالشجيع الحسيس يسند الى الغير باعثهُ الحقي الى الحسة والاختلاس

ومعظم حوادث الاضطهاد السياسي من هذا النوع . وان اختلف مظهرها . الاّ ان وجود هذا الغير لا يفسر لماذا يستمر الاضطهاد عند ما لا يكون المضطهد يخشى خطراً أو أذىً . ومع ذلك يستمر

وجميع نظم الحكم القائمة على مبدإ الزعامة والعصبان تتخذ هدفاً تركز من حوله الميل الى الاضطهاد . وقد يكون الاضطهاد مطلوباً لأسباب موضوعية ، كوجوب اتخاذ فرد أو جماعة مسداً يُسند اليه او اليها الاخفاق أو الخيبة ، أو للتوسل بها هدم الخصوم والمنافسين . ولكن علاوة على هذا هناك في الاضطهاد عنصر من عناصر هذا النوع من التخيل ، هناك اسناد الى الغير ما يجهله أو يتجاهله من بواعثنا الخاصة الخفية

والأقليات المضطهدة هي الأشخاص المطلوبة التي تسند اليها شرور الطبقات السائدة . وفائدة هذا الأسلوب واضح . إنهُ يخفف قلق النفس الحقي ، لأنهُ أسهل أن نحتقر الناس لحسة تسندها اليهم او لسوء ظنهم وريبتهم بالناس من ان نمقت نفسك وتحتقرها لحسة او ريبة فيك . فبذلك يتملص المرء من عبء الشعور بالاثم

وقد تقوم ذات المرء العليا ، او رقيبهُ النفسي ، او ضميره ، بتوجيه النقد الى ما يعمل والحكم عليه حكماً قاسياً ، ولكن هذا لا يرضيه لانهُ يحمله عبئاً ثقيلاً فادحاً . فانهُ يتملص من هذا النقد ، وذلك الحكم ، بتحوّل نقدهُ وحكمهُ الى غيره من الناس . وهذا يعني بدوره الى حالة شاذة اذ يبدأ المرء المطبوع على هذا الغرار يبرم بالأحكام الأدبية والقانونية — وكثير منها يكون متخيلاً لا وجود لهُ في الواقع — التي تفرضها الدولة عليه فينقلب وضوئيًا

واذن فالاعتداء البسيط في طبيعة البشر مردهُ الى غريزة الذات ، والنفور من الطارىء الغريب عن الجماعة ، والخيبة أو الفشل . والفرق بين العنصر والفردة من ناحية والكبار من ناحية اخرى ليس فرقاً أصلياً ولكنهُ فرق أسلوب في معالجة الحاجات المختلفة

ان النظام الذي يكبت الاعتداء لا يزيلهُ ولكنهُ يدفعهُ الى الغور في طوايا النفس فيظهر مفرغاً في قالب آخر . وهذا التحوّل انما هو الأسلوب الثاني من وصفنا الأول أسلوب التحويل والثاني أسلوب الاسناد . وغرضهما تخفيف الحزع الداخلي الناشىء في النفس عن براعث من الاحقاد والتعدي ، او النصّ والتشهير . وهذا يفضي الى ظهور الاعتداء في أشكال تتحلى في اعتداء الكبار ، ولا سيما اعتداء الجماعات ، في اتباع الحزبي ، والحروب الأهلية ، والحروب الدولية بوجه عام

في هذه الحالات يتخذ الاعتداء شكلاً اجتماعيًّا . ورغبة من الجماعة في تسويغ اعتدائها أمام العالم الخارجي وأمام أفراد الجماعة نفسها ، بغية حمل الجميع على قبول الاعتداء والتسليم به من الناحية الأدبية ، يعمد اعضاء الجماعة او فريق منهم الى انشاء المذاهب والنظريات ، كمذاهب التاريخ ونظريات السلالة والعنصر والدين وغيرها

أي أنهم يتخذون الدوافع الفطرية ، ويبنون حولها هيكلاً يشيده العقل لكي تظهر الدوافع معقولة لها ما يسوغها . ومن غرائب الطبع البشري أنك تجد شيئاً من الصحة في كل نظرية او مذهب من هذه النظريات والمذاهب ولكن معظمها فاسد خاطىء ، لا بمدى كونهُ تسويغاً لما يأكل النفس من مقتٍ ، ودفعاً عما تجري به الأيدي من عنف وقساوة

إن الأمم تحارب في سبيل التملك ، او في سبيل البغض الناشيء عن اسناد الضرر اللاحق بها الى أمة أخرى او طبقة أخرى من الناس ، او لشعورها بالحيرة والفشل وتصدّي الخلق لها لمنعها عن تحقيق ما تريد

والموافقة المتبادلة بين أفراد الأمة على عملٍ ما يحذف قبل الضمير او الرقيب من تقديرها ، ولذلك ترى الدول تتحارب لنفس الأسباب التي يتحارب الاطفال من أجلها

وقد يكون أبناء الدولة على جانب من العلم ، ولكنهم يبغون مرتبة من الشعور بالحيرة ، والاحساس بشقاء النفس ، حتى ليصعب عليهم ان يتحملوا عبء هذا النزاع النفسي الداخلي في صدورهم . فأمم من هذا القبيل ، او أمم فيها طبقات متحكمة متصفة بهذه الصفات ، هي في المعنى الأصيل من الاعتداء ، أمة معتدية

ذلك بأنها تكون قد بلغت درجة من النزاع النفسي لا قرار لها معها ولا اطمئنان ، فتغدو الحرب ضرورة نفسية لها لا مفرَّ منها . وفي هذه الحالة تشبُّ الحرب لغير سبب معقول او عذر واضح . قد تكون الحكومة بحادثة تافهة ولكن السبب الحقيقي ، ولكن الدافع الأصيل ، الى الحرب هو في داخل النفوس المعذبة ، نفوس الأمة المعتدية

هذه هي إذن أسباب الحرب الدولية مستخلصة من طبيعة البشر ، فالحرب تقع لأن القتال ميل أساسي في الناس ، ولأن القتال ضرب من السلوك يحفز اليه الأطفال والقردة وجماعات البشر والأمم ، فيأتي أحوال معينة منها الرغبة في الحيازة ، او الحيرة عن تحقيق رغبة ، او الخوف من منافسة الأغراب ، او تحويل البغض الكامن في النفس من شخص او جماعة الى شخص آخر او جماعة ثانية . كل واحد من هذه الأسباب يحفز الى الاعتداء ، وليس في الوسع ، بحسب ما نعلم حتى الآن ان نقدم أحداً منها على الآخر من حيث تأثيره . ان ذلك رهن بحال الاجتماع

علان الالمان وثالث يوغسلافي يذلان

جائزتي نوبل

في الكيمياء عن سنتي ١٩٣٨ و ١٩٣٩

أذاعت أكاديمية العلوم الاسوجية في استوكهلم من شهر انها منحت جائزة نوبل الكيميائية عن سنة ١٩٣٨ للدكتور رتشرد كون النمسوي الاستاذ بجامعة هيدلبرج وأنها منحت الاستاذين بوتنانت Butenandt الالماني والاستاذ روزيكا اليوغوسلافي الأصل الجائزة نفسها عن سنة ١٩٣٩ . ولا يحط من الشرف الذي أحرزه العالمان الالمانيان بمنحهما هاتين الجائزتين ، أنهما لا يستطيعان قبولها لأن الحكومة الالمانية قررت سنة ١٩٣٥ منع الالمانيين من قبول هذه الجوائز وذلك على أثر منح جائزة السلام للكاتب اوسيتسكي وهو معتقل في المانيا

ولد الاستاذ كون في ڤينا في شهر دسمبر سنة ١٩٠٠ وتلقى العلم على العلامة ڤلستاتر Willstaetter وعين مدرساً في جامعة ميونخ سنة ١٩٢٥ ثم ذهب في السنة التالية الى جامعة زيوريخ وفي سنة ١٩٣٠ عين مديراً لقسم الكيمياء في معهد القيصر فيلهلم للبحث الطبي في جامعة هيدلبرج فمديراً له في سنة ١٩٣٧

أهم مباحث الاستاذ كون في الكيمياء العضوية والفسيولوجية . أما الكيمياء العضوية فقد خص بها مباحثه الأولى اذ توفر على بحث سلاسل الايدروكربونات التي لم تشبع فلم يستقر بناؤها . وهذا قاده طبعاً الى بحث الكاروتينات وأسفر بحثه في هذه الناحية عن اضافة حقائق أساسية الى ما يعرف عن تركيب فيتامين (أ)

وفي الوقت الذي أذاع كارر [illegible] نتائج بحثه في الريبوفلافين اي فيتامين (ب٢) اذاع كون [illegible] مثل هذه النتائج بعد ما توصل اليها في بحث مستقل . ثم بين الصلة بين الريبوفلافين والانزيم الأصفر الذي كشفه فبرج عام [illegible] وأثبت انه يشترك في اتفاق السكر في خلايا الجسم . وفي أحدث ما نشر له نشرة تتناول خواص الكيميائية والحيوية التي تتصف بها بعض المواد في الحيوانات الدنيا

أما الأستاذ بوتنانت فولد في سبتمبر سنة ١٩٠٣ في بلدة فوكوفر بساكسونيا وتلقى علوم الهندسية الالمانية ثم عين مدرساً في جامعة زيوريخ سنة ١٩٢٨ وبعد [illegible] سنوات قضاها

استاذاً في جامعة اوترخت فان حياته العلمية قصرت على جامعة زيوريخ وهو الآن استاذ الكيمياء فيها. واشتهر روزيكا اولاً بتركيبه طيب المسك تركيباً كيميائياً وهو من الطيوب التي تشتد الحاجة اليها في صناعة العطور. وفضله العظيم في تركيب طيب المسك بالكيمياء مردُّه الى انهُ أثبت وجود طبقة جديدة من المركبات الكيميائية كما أنقذ ثيران المسك من الانقراض في بلاد التبت

وبوتينانت أصغر الثلاثة سناً فقد ولد في مارس سنة ١٩٠٣ في فيسرموند في المانيا وتلقى العلم في جامعة ماربورج وفاز برتبة الدكتوراه من جامعة غوتنجن ثم عين للتدريس فيها تحت اشراف الاستاذ فندوس Windaus وبقي فيها الى سنة ١٩٣٣ ثم عين استاذاً في جامعة دانزج. وفي سنة ١٩٣٧ نقل مديراً لمعهد القيصر فلهلم للكيمياء الحيوية في برلين. وكان البحث الذي أجراه بإشراف فندوس — وهو أحد حائزي جائزة نوبل الكيميائية — في فيتامين D وغيره من المواد تمهيداً لبحثه الدقيق في انوار (هرمونات) الشق Sexhormones. وفي هذا البحث الأخير يلتقي هو وروزيكا لذلك منحا جائزة ١٩٣٩ مشاركة

بعد ما كشف زونديك Zondek وأشيم Aschheim ان بول الحامل يحتوي على كثير من أنوار الانثى الشقية عني بوتينانت ببحث تركيب هذه الأنوار. واستخرج كذلك صيغة تركيب مادة (ستيرويد) غير فعّالة كشفها ماريان في بول الحامل. ثم ثبت بعد سنوات أن هذه المادة من مفرزات المبيض. وقد شهد له أحد العلماء الأميركيين بقيمة هذا البحث. لأنهُ عرف تركيب هذه المادة قبلما عرفت صلتها بالحمل. وفي هذا دليل — بحسب قول الأميركي — على فائدة البحث العلمي لغير غرض عملي مقصود. ومع ان مباحث روزيكا لها شأن في دراسة الأنوار الشقية في الأنثى الا أن معظم بحثهِ في الأنوار محصورٌ في الأنوار الشقية في الذكر

وفي سنة ١٩٣٤ فاز بوتينانت في استخلاص الاندروستيرون وهو هرمون الذكر مبلوراً وفي السنة نفسها والسنة التي تليها وصف روزيكا التجارب التي أثبت تركيبهُ الكيميائي، وتمكن كذلك من ان يبدأ بمادة الكولستيرول التي تكثر في الجسم وبعد معالجتها بالأساليب الكيميائية حوَّلها الى هرمون الذكر الفعّال، أي الاندروستيرون

وكشف باحثان يدعيان كالاجر Gallagher وكوخ Koch هرمون ذكر آخر في خصى الثور وما كاد باحث ثالث يدعى لاكير Laequer يستخلصهُ مبلوراً حتى فاز بوتينانت وروزيكا بتوليده بالأسلوب الكيميائي من الكولستيرون

ولما كانت جزيئات هذه المواد كبيرة التعقيد فتعديل يسير في تركيب الجزيء يجب ان يفضي نظرياً الى مواد كثيرة تعرف بالمشتقات، وقد وقف بوتينانت وروزيكا جانباً غير يسير من وقتهما على بحث علمي منتظم في مشتقات أنوار الذكر

أسباب الانتحار

بحث علمي احصائي

بواعثهُ ومعدلهُ بين شعوب الأرض

ومختلف طبقاتها

الحياة في كل شعوب الأرض أثمن قنية يقتنيها الانسان . ولا بدَّ من أن تبقى في حرز حريز لا تباح للمعتدي إذا شاء لسراقها البقاء . على الرغم من المصاعب التي تصادفها وضروب ألهوان والخيبة التي تصيبنا يظل الأمل عاجزاً في الغالب عن الفوز على الرغبة في الحياة . ومع ذلك نجد على كثير من الناس أحيان يتمنون فيها راحة الموت وسلام القبر . فالوجود كثير التعقيد لا يخلو من بواعث اليأس والقنوط وكثيراً ما يجد الانسان نفسه في مأزق تصغر فيه قيمة الحياة أمام راحة القبر . تملك هذه الخواطر عنان النفس لحظة عابرة فاذا استطاع الانسان ان يحتفظ في تلك اللحظة بعقله واتزانه أدرك أن مصاعبهُ تنقضي وان سيلاً مقروناً بالحكمة يخرج به من المعمعة ظافراً . ولا ريب في أن غريزة البقاء تضع أمام العزم على الانتحار سدّاً منيعاً ولكن هذا السد ينهدم في بعض ساعات القنوط الشديد فتزهق الروح وتخمد شعلة الحياة . ومهما يكن السبب فعدد الذين يختارون هذه الطريقة للفرار من تبعات الحياة كل سنة كثير يعدون بالألوف وتركتهم في الغالب هم المغلوبون في ميدان الحياة وانتحارهم اقرار منهم بعجزهم وهزيمتهم

﴿ زيادة الانتحار ونقصه ﴾ عدد الذين ينتحرون في الولايات المتحدة الأميركية كل سنة وثبت حوادث انتحارهم يبلغ نحو ١٦٠٠٠ نسمة . ولا ريب في ان عدداً كبيراً ينتحر فلا يسجَّل انتحاره لأن أقاربهم يخفون السبب فيدوّن في سجل الوفيات على أن الوفاة طبيعية أو غير ذلك . ومن المتعذر علينا الآن أن نثبت هل الانتحار آخذ في الزيادة في أميركا أو هو ثابت على متوسط واحد . فالاحصاءات المدونة لم تبدأ الا في مطلع القرن العشرين فما كان متوسط المنتحرين ١١٫٥ في الألف وظلَّ يرتفع حتى بلغ ١٧٫٨ في الألف سنة ١٩٠٨ وظلَّ نحو ١٦ في الألف الى مطلع الحرب الكبرى . فلما دخلت الولايات المتحدة غمار الحرب هبط متوسط المنتحرين تدريجياً الى أن بلغ ١٠٫٢ في سنة ١٩٢٠ وهذا يسابق زيادة الانتحار ونقصانه في البلدان الأوربية مما يدل على أن خير ما يمكن أن تشارت عليها الشعوب هو التدفع والنفوس الى

الانتحار قنوطاً من صلاح الحال . ثم أخذ هذا المتوسط يرتفع في الولايات المتحدة الأميركية سنة ١٩٢١ حتى بلغ ١٣٫٦ سنة ١٩٢٨ فالاتجاه العام غير مبين ولكن الأمر الذي لا ريب فيه أن المتوسط هبط عما كان عليه سنة ١٩١١ ومما يؤثر في هذا العدد ان متوسط الانتحار بين الهال في الريف نقص اكثر من نقصه في مجموع الأمة

﴿ اختلافه باختلاف البلدان ﴾ ومتوسط الانتحار يختلف باختلاف البلدان فبين عن العادات المختلفة التي يجري عليها السكان وعقائدهم الدينية وأحوالهم الاقليمية والاجتماعية وغير ذلك من العوامل التي تزجر النفس وتقيها من الاستسلام لعوامل الهلاك . في الصف المتوسط نجد الولايات المتحدة والنمسا وأسوج وويلز واسكتلندا وأستراليا وزيلندا الجديدة وهلاندا . ويفوقها قليلاً في عِدّ متوسط الانتحار بلدان البلجيك والدنمارك وفرنسا ويقل عنها قليلاً بلدان بإيطاليا وهولنده ونروج وكندا . وأعلى متوسط للانتحار في اليابان والبلدان الجرمانية كألمانيا والنمسا وسويسرا والمجر وبولونيا وتشكوسلوفاكيا . وللمتوسط فيها يتراوح بين ٢٥ في الألف و٣٠ في الألف وهو ضعف المتوسط في أميركا وانكلترا وغيرهما وستة اضعاف الى عشرة اضعاف المتوسط في البلدان الكاثوليكية مثل أسبانيا وإيرلندا وشيلي وكوبا . ومما هو جدير بالذكر ان متوسط الانتحار في القسم الكاثوليكي من أرلندا يبلغ ٣٫٢ في الألف وفي القسم الشمالي وهو القسم البروتستانتي يبلغ ضعف ذلك او نحو ٦ في الألف

﴿ الزنوج والبيض ﴾ والانتحار في الولايات المتحدة الاميركية مقتصر تقريباً على البيض ففي أحد عشر مليوناً من الزنوج في تلك البلاد لم يحدث سوى ٥٠٠ حادثة انتحار في سنة . وهذه الحقيقة على جانب من الخطورة لأن متوسط القتل العمد بين الزنوج عالٍ جداً . فليس ثمت أساس علمي للاعتقاد القائل بأن الانتحار والقتل يسيران جنباً الى جنب . وأنهما ينشآن عن احتقار الحياة الانسانية . والظاهر ان لكل من العملين سراً نفسياً معيناً يختلف عن الآخر . فالقتل ينشأ في الغالب عن انفعال عنيف مفاجيء يتلوه الدافع للقتل . أما الانتحار فيغلب عليه ان يكون نتيجة تدبّر وروية وتأمل باطني وهي نفس العوامل التي تخمد الإقدام المنصي الى العمل

﴿ السن : الكبار والصغار ﴾ والسن عامل من أهم العوامل في الانتحار وعلى الضد من الاعتقاد العام يزداد متوسط الانتحار بتقدم السن . فالأطفال والصغار يندر ان يقع بينهم حادث انتحار . فحفظهم وسجيتهم ونشاطهم تحول دون مرارة الحياة وظلمة الهبوط . ففي سنتي ١٩٢٣و١٩٢٤ وقع في الولايات المتحدة التي شملتها الاحصاءات ٢٣٠٠٠ حادث انتحار لم يكن بينها سوى ٧٨ من الأطفال لم تبلغ من العمر أحد عشر واحد في الثالثة عشرة ومع ذلك فالحوادث التي

تشهرها الصحف وتهوّل بها ألم يثبت ان الانتحار بين الصغار مسألة اجتماعية معقدة ولا علاقة لها بما تدّعيه الصحف من تفشي الشعور بالمرارة والخيبة بين الاحداث وأكبر دليل على ذلك ان نقص متوسط الانتحار كان معظمهُ في طبقة الاحداث المراهقين في السنين الأخيرة . واذا بدأنا التتبع من سني المراهقة الى الكهولة وجدنا انهُ كلما تقدم الشبان في السن زاد متوسط الانتحار بينهم . بل ان نصف حوادث الانتحار التي تقع في أميركا تقع بين الرجال الذين سنهم ٤٥ سنة او فوق ذلك مع ان الرجال الذين في هذه السن ليسوا الا عشرين في المائة من مجموع السكان والانتحار في الرجال وفي النساء يبلغ معظمهُ في الكهولة والشيخوخة وهو في الرجال أكثر منهُ في النساء

(الرجال والنساء) والواقع انهُ يصح القول بأن الانتحار استجابة نفسية خاصة بالرجال فعدد المنتحرين كل سنة ثلاثة أضعاف المنتحرات . ولا يفوق متوسط المنتحرات متوسط المنتحرين الا في السن ١٥ — ١٩ وهو لا شأن له لقلة المنتحرين والمنتحرات فيهِ كما تقدم . على أننا نستطيع ان نتبين من ذلك ان اضطراب الحالة النفسية في سن المراهقة أبعث على انتحار الفتيات منهُ على انتحار الفتيان . ولكن الآية تنقلب بعد سن العشرين ويأخذ متوسط المنتحرين يطرد ازدياداً . ومنهُ نتبين ان المنتحرين في سن ٢٥ — ٣٤ يفوق ضعفي المنتحرات في ذلك السن ثم يصير أربعة اضعاف في السن ٣٤ — ٤٥ وسبعة اضعاف فوق سن الخامسة والستين

(وسائل الانتحار) أما في وسائل الانتحار فللرجال خطة معينة واضحة وللنساء مثلها. فالرجال يستعملون الوسائل العنيفة كاطلاق الرصاص والشنق وهما أكثر الوسائل شيوعاً بين الرجال . أما النساء فيؤثرون السم والاختناق بفتح أنبوب الغاز . وفي الغالب يندر ان تختار المرأة وسيلة للانتحار تنطوي على اراقة الدم او تشويه الجسد . وقد بلغ من ندرة استعمال الرصاص للانتحار بين النساء ان أشار بعض الأطباء النفسيين (Psychiatrist) الى ان استعمال امرأة للرصاص في الانتحار دليل على ميلها الخشوي

ومع ان الرجال يطلقون الرصاص غالباً والنساء يؤثرون السم الا ان هنالك « أزياء » أي أسباب خاصة تفشو حتى في الانتحار ثم تزول . فمنها في هذه الأيام الارتماء من نوافذ البنايات العالية . ومما لا ريب فيهِ ان وسائل الانتحار تختلف باختلاف البلدان . ففي سويسرا يفضل المنتحرون ان يشنقوا أنفسهم على ان يطلقوا الرصاص والنساء يفضلن الغرق على السم . والانتحار غرقاً في بلجيكا كثير الشيوع فهو بين النساء ثاني وسائل الانتحار شيوعاً وبين الرجال تالثها . ومما لا ريب فيهِ ان سهولة تناول نبع وسيلة الانتحار في كثير من الجواد . فاذا كان لا سان قاطناً وتح درجةً ورأى منحدراً مخشوشناً أطلقهُ على نفسهِ او اذا رأى أمامهُ جبلاً جديداً

وكأنما يطلق منه انتحر شنقاً . فالوسائل عنده سواء لا يفضل منها الا ما كان رهن يديه. ولكن هنالك طائفة من المنتحرين تكابد انواع الشاق لتنتحر بطريقة مرسومة من قبل. وقد علمنا حديثاً عن أول حادثة انتحار بالارتماء من طيارة أقدمت عليها سيدة لتفوز في موتها بالشهرة التي تخطتها في حياتها

﴿ الانتحار والحالة الاقتصادية ﴾ واذا حاولنا ان نتبين العلاقة بين الميل الى الانتحار وحالة المنتحرين المالية عرفنا ما ينطوي عليه هذا البحث من الصعوبة والتعقيد . والحقائق التي لدينا لا تسوغ لنا الا الاستنتاج التالي : يندر أن يكون سبب الانتحار واحداً . فقد قيل أن الأثرياء الذين يملكون كل وسيلة للتمتع في الحياة أقرب الى الانتحار من المعدمين الذي لا يكادون يملكون ما يتبلغون به . ولكن الاحصاءات التي بيننا عليها هذا لا تؤيد ما يقال . فسجلات الوفيات في الولايات المتحدة الاميركية الاميركية لا تفيدنا في تبيين حالة المتوفى المالية والاجتماعية . على أن خير ما نستطيع الاعتماد عليه بعد السجل الرسمي ، احصاءات شركة متروبوليتان للتأمين على الحياة . فلديها طائفتان من حاملي بوالص الشركة طائفة صناعية وطائفة عادية . وتشتمل الأولى على العمال القاطنين المدن ومتوسط الانتحار بينهم بحسب احصاءات هذه الشركة أعلى في كل سني الحياة (بعد العشرين من العمر) من حاملي البوالص العادية وجلهم من أصحاب المهن الحرة وأصحاب المرتبات

وهناك أدلة أخرى تشير الى أن متوسط الانتحار يتبع الى حد ما الحالة المالية . ذلك أن متوسط الانتحار بين الرجال يختلف باختلاف الاحوال الاقتصادية العامة. ففي سنة ١٩٢٢ قام الاستاذان اوغبرن وتوماس بدرس دقيق خرجا منه بان الرواج ينقص متوسط الانتحار بين الرجال والكساد يزيده . وقد وصل باحثون آخرون الى مثل هذه النتيجة من طرق اخرى. فحالة الكساد التي كانت سائدة في دوائر العالم المالية والاقتصادية بين ١٩١٣ و١٩١٥ رافقتها زيادة تذكر في متوسط الانتحار . ثم نقص المتوسط في سنوات الرواج في اثناء الحرب والكلام على اميركا ، حتى بلغ حده الأدنى سنة ١٩٢٠ فما بدأت فترة الكساد بعدها أخذ يزداد مما يدل على وجود علاقة طردية بين الرواج (أو الكساد) ومتوسط الانتحار . ففي الذعر المالي الذي استولى على وول ستريت في آخر سنة ١٩٢٩ قيل أن الناس الذين فقدوا كل ما يملكونه في تلك الكارثة كانوا يرتمون من نوافذ الفنادق التي يقيمون فيها . وقد استنبطت للدلالة على ذلك نصة فقيل أن كاتب احد الفنادق كان يسأل كل من يطلب استئجار غرفة في فندقه « هل في نيتك ان تستعمل الغرفة لغرض القفز ؟ » وانه اتضح ان حوادث الانتحار ارتماء التي شهرتها الصحف لا شأن لها في الاحصاءات الرسمية لقلتها

اما في انكلترا فتقسم الأمة الى خمس طبقات اقتصادية ومتوسط الانتحار في الصفتين الأوليين فوق المتوسط العام ومتوسطهُ في الصفات الثلاث الباقية تحت المتوسط العام . ومن الغريب أن اكثر حوادث الانتحار تقع في انكلترا بين اصحاب المهن الحرة وخاصة الأطباء وأطباء الاسنان والمحامين على حين ان قلة جداً بين المعلمين ورجال الدين . ولم تروَ حادثة انتحار واحدة بين رجال الدين الكاثوليكي مع ان متوسط الانتحار بين رجال المذهب « الانجليكاني » فوق المتوسط العام وبين رجال المذهب البروتستاني فوق المتوسط العام . ومما ثبت ايضاً ان الانتحار كثير جداً بين وكلاء شركات التأمين وتجار المشروبات الروحية وأصحاب الحانات وبعض المشتغلين بصناعة الغزل والنسيج . فالاحصاءات البريطانية تؤيد القول بان الانتحار اكثر بين الصفات الغنية منهُ بين الطبقات الفقيرة . ولكن الفروق التي تشير اليها الاحصاءات التي لا تكفي لتأييد هذا الحكم الفاصل تأييداً نهائياً

﴿المدن والريف﴾ هل في ازدحام المدن عوامل لمعدل النفوس للانتحار ؟ لا نعلم . ولكن الواقع الذي تؤيدهُ الارقام هو ان متوسط الوفيات في المدن أعلى منهُ في الارياف . ومن ذلك عائد الى استفزاز الحالة العصبية وقلة انطلاق فيها وقلة الازواج الذين لا أولاد لهم ولوحدة العادات والتقاليد وتباعد ما بين الزوج والزوجة . وليس الانتحار في المدن اكثر منهُ في الأرياف فقط بل هو في المدن الكبيرة اكثر منهُ في المدن الصغيرة ، اذا تساوت العوامل الاخرى . ففي سنة ١٩٢٦ كان متوسط الانتحار العام في الولايات المتحدة الاميركية ١٢٫٦ في الالف . وكان في نفس تلك السنة في المدن ١٦ في الالف وفي المدن التي يزيد سكان المدينة منها على نصف مليون نفساً ٨٫٤ في الالف

﴿الشعب والعقيدة والثقافة﴾ وبما كان سكان الولايات المتحدة الاميركية مؤلفين من شعوب مختلفة فدرس تاريخ الانتحار بين هذه الشعوب لهُ شأن كبير في تفهم اسبابه والبواعث عليه . وقد أشير فيما سبق في هذه الناحية عن ان نسبة على أعلاها بين الاميركيين المولودين ألمانياً أو من أبوين ألمانيين ، وعلى أدناها بين الايرلنديين واليهود . أما بين الايرلنديين فمتوسط الانتحار قريب من متوسط الاميركي العام وبين اليهود أعلى من متوسط الانتحار في روسيا . أما الانكليز الناطقون في كندا فمتوسط الانتحار بينهم أعلى جداً من المتوسط الاميركي العام بين هم قريبون من الانكليز في بلادهم

يظهر من ذلك ان ميل الى الانتحار يختلف باختلاف الشعوب . ولكن كلمة « شعب » لا تدل على معنى معين واضح نستعملها هنا تدليلاً على وراثة تاريخية وثقافية وما اليها . وهذه العوامل النفسية هي اعمق العوامل أثراً في تكوين نفسية الحياة . فاذا كان الفرد يتعلم بتعاليم

الكنيسة تسليماً حرفيًّا ويخضع لسلطتها ويأخذ بما ترسمهُ له من واجبات قليل الى الانتحار قليل . أما اذا كان نظام الكنيسة غير محكم وسلطانها مبهماً وكانت للفرد الحرية المطلقة في توجيه حياته فالراجح أن الميل فيه الى الانتحار يكون قويًّا . وهذا يعلل الى حد ما قلة الانتحار في البلدان الكاثوليكية . قالانتحار شيء نادر بين فلاحي أسبانيا وايطاليا وارلندا وغيرها من البلدان الكاثوليكية . حتى في المانيا حيث يكثر الانتحار نجد فرقاً بين متوسطه في بروسيا البروتستانتية وبافاريا الكاثوليكية

ومما يتصل بالعقيدة الدينية في تحديد الميل الى الانتحار الوجهة الفكرية التي تخلقها الثقافة السائدة . فمن الشعوب من يخضع للسلطان سواء كان روحيًّا أو عقليًّا أو سياسيًّا أو إجتماعيًّا على أنهُ إرادة الله . والفلاحون في الغالب هم من هؤلاء فانهم يقبلون سلطة الكنيسة والدولة ويسلمون معهما بأن الانتحار جريمة في نظر الله والدولة . فهم يحسبون الحياة هبة من الله ويسلمون كما يعلمون ، انَّ على كل انسان أن يحمل صليبهُ مسلمًا ، من غير ان يتساءل عما في ذلك من عدل أو جور . يقابل ذلك آراء الطبقات المتعلمة ومعظمهم في التالب من سكان المدن وعندهم ان للفرد مقاماً خاصًّا في نظام الاجتماع وينتظرون من الحياة اسباغ نعمها عليهِ فاذا لم يتمّ ما يطلبون شعروا ان الحياة نفسها تخيب مقاصدها وتقطع عليهم سبيلها فتضطرب عقولهم وتقلق نفوسهم من هنا يكثر انتشار الانتحار بينهم

لقد أتينا فيما تقدّم على العوامل الخارجية التي لها أثر في زيادة متوسط الانتحار أو نقصانهِ . ولكن الاقدام على الانتحار أو الرغبة فيهِ نتيجة نزاع نفسي . فما هو الاَّ الفصل الأخير في « درامة » نفسية عنيفة . وفي بيان هذا النزاع يجب ان نلجأ الى الاطباء النفسيين . هؤلاء يقولون ان الانتحار نادرٌ بين الناس ذوي العقول المتزنة والعواطف المستقرّة . وانهُ منتظر في الذين على النقيض من ذلك . فقد شرّح الدكتور بفيفر (Pfeiffer) جثث ٦٠٠ منتحر فوجد في عدد كبير منها آفات في الدماغ . وحلّل الدكتور ستزنز (Stertz) عدداً من حوادث الانتحار في ولاية مستشوستس فوجد الجنون جليًّا في ثلثها ووجد في ثلث آخر أعراض النورستينيا أو إدمان الكحول والمخدرات . وهناك حالتان نفسيتان اليهما ترجع أسباب كثيرة من حوادث الانتحار . الاولى الملانخوليا وأساسها الشعور بالتدني والضعف . والثانية « دمنشا بريكوكس » ومن مظاهرها شعور الاستعلاء والعظمة ومنها وهم يسيطر على مريض فيقنعهُ بأن الله يدعوه اليهِ . ثم هناك الجنون الناجم عن الاصابة بالخناق (السفلس) أو ادمان الكحول . وبعد كل هذا نجد حوادث إنتحار اتباعث عليها اضطراب عقلي أو شعوري من غير أية إصابة عضوية وهذه ترجع غالباً الى طريقة التعليم والتهذيب وطريقة اتصال الفرد بالمجتمع فيستولي عليهِ شعور الخيبة والصدّ والفتور

لماذا تحبني

اليزابث باريت براوننغ زوجة الشاعر الانكليزي الكبير روبرت براوننغ كانت شاعرة كبيرة وتعد من أعظم شواعر اللغة الانكليزية . ومن آثارها مجموعة من الاناشيد (سونيتات) أطلقت عليها عنوان (من البرتغالية) ومنها هذه الاغنية العربية الممتازة بالرقة والحنان

اذا كان لك أن تحبني فليكن ذلك لأجل الحب وحده .

لا تقل أنا أحبها لبسمتها ، لنظرتها ، لحديثها اللطيف ،

لفكرة في فكرها تتسق مع لفتات فكري ، وتنشيء شعوراً

بالارتياح والطمأنينة كلّ يوم من أيام الحياة .

لأن هذه الأشياء بحدّ ذاتها قد تتغيّر ، يا حبيبي ،

أو قد تتغيّر في نظرك ، فالحب الذي نسج منها

يتحلّل كما نسج . ولا تحبني لما تشعر به من الاشفاق

اذ تمسح الدموع عن خدي ، فقد ينسى المكان

الذي تطول نياهُ في عينك ان يبكي ، فيفقد حبك كذلك .

ولتكن أحبني لتحب . تحبني بمضي حينا ، حبك الى الأبد

شعر البارودي

حياته وصورة عصره[1]

لمعالي الدكتور محمد حسين هيكل باشا

شعر البارودي حياته ، فكل قصيدة في ديوانه صورة لحالة نفسية من حالات هذا الشاعر الملهم . والديوان في مجموعه صورة لعصر الذي عاش فيه ، ولبيئة التي أحاطت به ، وللنهضة الثورية في الحياة حوله ، وللثورة التي تمخضت عنها تلك النهضة ، وللنكسة التي أصابت النهضة والثورة كليهما ، والتي نقلت الشاعر من وطنه إلى منفاه ليقيم به بضعة عشر عاماً وبعض عام ، يستأثر الشعر بها جميعاً . وقد اختار البارودي أثناء نفيه أجود ما قيل من الشعر في العصر العباسي ، وقلد أجود مما اختار ، فبعث الشعر العربي خلقاً جديداً . وشعر ملئ كشعر الشباب وشعر الكهولة صورة صادقة لهذه الحياة التي أرادها القدر أن تكون فذاً من الأفذاذ ، تسمو بها النشوة إلى ذروة السرور والطرب حيناً ، ويدفعها الطموح إلى مضطرب الثورة والمثل الأعلى حيناً آخر ، ثم تصقلها السن ويصقلها النفي ، فإذا الحكمة والحنين والحب تبعث إلى هذا النفس سكينة تسمو به على ما تأنوف من ألحان الحياة ، لا يغير من ذلك ما يدفعه النفي إلى نفس الشاعر من ألم تترجم عنه صيحات ثائرة تعيد أمام أذهاننا صورة من ثورات شبابه وثورة كهولته

أما وديوان البارودي حياته ، فلا بد في تقديمه من وصف هذه الحياة ، ومن تصوير البيئة التي عاش فيها . وليس يتسع التقديم للافاضة في الوصف والتصوير فلنتناول من جوانب هذه الحياة ، ومن نواحي هذه البيئة ما يجلي أمامنا الحالات النفسية التي أملت على الشاعر شعره . وسنرى من هذا الوصف كثيراً مما يوضح أغراض الشاعر ، فيعيننا على إدراكها كاملة ، ويجلو لنا الفضل العظيم الذي أتاه البارودي . فبعث به الشعر العربي واللغة العربية . ومهد لنا من ألوان المتاع بهما والانتفاع بتراثهما ما يرفع ذكره في الخالدين

— ١ —

ولد محمود سامي البارودي بمصر لأبوين من الجراكسة في السابع والعشرين من

[1] هذا التقديم الذي كتبه معالي الدكتور محمد حسين هيكل باشا لديوان البارودي الذي أخرجته لجنة التأليف والترجمة والنشر في مجلدين سنة ١٩٤٠ م

شهر رجب سنة ١٢٥٥ هجرية (١٨٣٨ ميلادية) . وكان أبوه حسن حسني بك البارودي من أمراء المدفعية ، ثم صار مديراً لبربر ودنقلة في عهد التغور له محمد علي باشا والي مصر . وكان عبد الله بك الجركسي جده لأبيه . أما لقبه « البارودي » فنسبة الى بلدة إبتي البارود إحدى بلاد مديرية البحيرة . ذلك ان أحد أجداده الأمير مراداً البارودي بن يوسف شاويش ، كان ملتزماً لها ، وكان كل ملتزم ينسب في ذلك العهد الى التزامه . وكان أجداد البارودي يرقون بنسبهم إلى حكام مصر المماليك . وكان الشاعر شديد الاعتداد بهذا النسب في شعره وفي كل أعماله ، فكان له فيه أثر قوي في جميع أدوار حياته ، وفي المصير الذي انتهى إليه

وقد حرم البارودي العطف الأبوي منذ نعومة أظفاره . مات أبوه بدنقلة وهو في السابعة من عمره ، فكفله بعض أهله وضموه اليهم . وقد تلقى في بيتهم دراسته الاولى من الثامنة الى الثانية عشرة من عمره ، ثم التحق بالمدرسة الحربية مع امثاله من الجراكسة والترك وابناء الطبقة الحاكمة . فقد كانت الجندية مظهر السيادة والعزة ، ومن ثم كان لزاماً على أبناء هذه الطبقة أن يتعلموا فنونها ليتهيأوا للمناصب الرئيسية للدولة . هذا الى أن مصر كانت يومئذ في أوج النشاط الذي بثه فيها محمد علي ، والذي كان الجيش أسه وقوامه

وخرج البارودي من المدرسة الحربية في أخريات سنة ١٢٧١ هجرية (١٨٥٤ ميلادية) ، وهو في السادسة عشرة من عمره . ولسوء حظه وحسن حظ الأدب كانت ولاية مصر قد آلت حينئذ الى عباس الأول ثم الى سعيد . وكان عباس قد عدل عن الخطة التي بدأها محمد علي حين رأى الدولة العثمانية تنظر الى جيش مصر بعين الريبة والقلق . لذا تعطلت النهضة التي كانت متصلة بالجيش في الصناعة والتعليم ، وبدأ يحتشم على مصر جو من الركود وبث دأبت الروح المصرية في توثبها بعد الذي رأته من توثبها على غزو الشعوب وغزو الممالك العثمانية نفسها

وأصبح عهد سعيد وخرج (الباشجاويش) محمود سامي البارودي من المدرسة الحربية في هذا الجو الراكد تستجن في جنباته أسباب اليقظة والقلق . ماذا نراه يصنع ؟ لقد سرح الجيش وأغرت ميادين القتال من أنوية مصر ، وتسمر هو وامثاله من رجال السيف على عيش الحلول والدعة . وكان أكثر هؤلاء رجالاً صغار الأحلام لم يشئوا ان اضأبوا الى سكينهم وسكنوا الى حوطهم . ولعل كثيراً منهم قد سرهم البعد عن مواطن القتال وخطره ، وطاب لهم عيش الدعة والتبذر بفارغ القول وهراء الحديث والتملق . أما هذا الشاب الذي لم يتجاوز بعد عنفوان الحياة والذي يجري في عروقه دم الامارة والمجد ، فقد أحس ثورة الشباب تهزه هزاً عنيفاً . تطلع الى ماضي الغرب وذكر مسيرة الأعلام المصرية الى بلاد العرب والى سورية وفي الأناضول ، فتمنى لو انه فيهم بين هؤلاء الغزاة وشاركهم سرائهم وضرائهم ، وسعى الى

ما قبل هذا الماضي ، فرتسمت أمامه صورة أمجاده الماثلة يحكون على ضفاف ابو دي ، فحنّ الى عهدهم ، وتمنى لو كان معهم ، وانى حتم مسعد ما اتّصف بمستقبل يرجو الانسان فيه مجداً وسلطاناً . لكنهم أم لا ذنب حين يطلب اليه الماضي أن يحققها فذا المستقبل أمامه مظلم عبوس

كيف يتسلى الشاب عن هذا الألم ؟ ألا سبيل إلى ميادين يخلقها وحروب يخوض غمارها مع الخالقين ؟ ان العرب أجدادنا الاولين — والعربي جدٌّ لكل من تكلم العربية — قد سجّلوا في شعرهم وقائع الحرب ، وصوروا ميادينها ، وبلغوا من قوة تصويرهم أن اجروا فيها حياة لا تبلى ، حياة لا تعرف الركود ولا الضعف ولا الاستكانة . فليرجع الشاب الى ديوان الحماسة وليقرأ الشعراء الذين يصورون الزمن امام بصائرنا ، ويجعلونها ، على بعد ما بيننا وبينهم ، تسمع قعقعة السلاح ، وترى نزال الأبطال ، ونشترك معهم في المعركة بقلوبنا وأرواحنا ، وإن لم نشترك فيها بدروعنا وسيوفنا

اندفع الشاب يقرأ الشعر العربي القديم ، فتخزن ذاكرته القوية منه كل ما طاب لها ادّكاره . وألفى البارودي في هذا الشعر روعةً وجمالاً يأخذان بالب ، ويحركان اللسان الى القول . وهذا الشعر لا يقف عند الحروب والميادين وما تخلعهُ على الأبطال من مجد ، بل يتناول الحياة كلها : جدها وهزلها ، حلوها ومرّها . ففيه الغزل والوصف والحكمة ، وكل ما يطمع الانسان ان يجده فيه . وأنت كلما ازددت إمعاناً في قراءته وتدقيقاً في معانيه ، انفسحت لك آماده ، فازددت به متاعاً وبحفظه تعلقاً

وتحركت نفس الشاب لقول الشعر بعد ان توفر على مطالعته واستظهاره . لكن ! أي شعر يقول ؟ والى أي الأغراض ينزع ؟ أيمدح ؟ ولكن من ؟ ولماذا ؟ أفيدعو ؟ ولكن من ؟ والى أي شيء ؟ ومن بين الأغراض أنبل مما يجول بنفسه من آمال وآلام ! أليس هو البارودي سليل الماليك ، الطموح الى المجد والى الفخر بماض مؤثل ! والدم الذي يجري في عروقه ، وإن فقد أباه طفلاً وعاش يتيماً ، يسمو به على أمثاله من أرباب السيف جميعاً ، بل يسمو به على كل من في المملكة ، ويجعله وحده الجدير بأن يكون غرض شعره

هذه النزعة في شعر البارودي بدت منذ شبابه ، ومنذ بدأ قريضه يستقر لتحفظه الأجيال . والقصيدة التي رثى بها أباه وهو في العشرين من سنه تصرح بهذا المعنى واضحاً جليًّا . فهو يقول فيها إنهُ فرد من أمجاده لا نظير له فيهم . وهو يكرر هذا المعنى في كل شعره طول حياته . وإيمانه بقيمته هو الذي سما به الى الذروة من مناصب الدولة . كما أنهُ هو الذي انتهى به إلى النفي وشعره إلى الخلود

ولقد رضي البارودي عن شعره منذ قال ، إذ رآه صورة نفسه وما تعبر اليه في

لذلك لم ينصرف عنهُ حين عبره أبناء طائفته أنهُ يحاكي الظالمين الذين يلتمسون عطف حاكم أو عطف أمير. وكيف يسمح هو أم كيف يسمح لهم وهو يقول الشعر سمواً بأغراضه عن ان تصاغ إلاَّ في أجمل اللفظ وأروع العبارة! ولقد سبقهُ من الأمراء في الدول العربية شعراء مجيدون خلد الدهر شعرهم وأثبت التاريخ في أمجد صحفه أسماءهم. كان ابن المعتز شاعراً، وكان الشريف الرضي شاعراً، وكان أبو فراس شاعراً، وكان امرؤ القيس قبل هؤلاء جميعاً شاعراً. ولقد قرأ البارودي شعرهم جميعاً فطرب له واهتز لروعته. أفلم يقرأ من يعيرونهُ مثل ما قرأ؟ وما ذنبه اذا قعد بهم جهلهم عن اتباع بجمال الشعر وقعدت بهم قرائحهم عن صوغ مثله! وهو في هذا المعنى يقول:

تكلَّمتُ كالماضين قبلي عادة ... بها عادة الانسان ان يتكلَّما
فلا يعتدي بالاساءة عاقلٌ ... فلا بد للابن الأبيّ أن يقرعا

كانت دولة الشعر ناشئة إذ ذاك. فكان عبد الله فكري ومحمود صفوت الساعاتي وعبد الله نديم وغيرهم يقولون في اغراض شتى. فكر البارودي الناشيء كان من طراز غير طراز هؤلاء جميعاً كان غيرهم بنسبه، وبتفكيره، وبمثله الأعلى في الحياة، ثم كان غيرهم بموهبته في الشعر. فهو لم يتعلم النحو والصرف والعروض والقوافي، وهو لم يظن الشعر يبتغي بقوله مأرباً. إنما سجع به لانهُ في سليقته، ولا بد للابن الأبيّ ان يترنم، وسجع على عادة الأمراء الشعراء من قبله ليخلق من حوله ميادين لمجد يعوضهُ عما فات سيفه في ميادين القتال، بعد ان وردت الأقدار سيف مصر الى غمده.

على انهُ رأى الجو المحيط به لا يتسع لتحليقه ولا لطموحه. ولعله رأى كذلك ان هذا الشعر العربي الذي اصبحت أقلامه بروحه قد يضيق على سعته عن تصوير نبل روحه. لذلك سافر الى الآستانة عاصمة الدولة، والتحق بوزارة الخارجية، وتعلم اللغتين التركية والفارسية، وعكف على آدابهما. فاستظهر شعرهم وتعمق أوزانه، ودعتهُ سابقة الشاعر الى القول فقال بالتركية وبالفارسية، كما قال من قبل بالعربية.

على ان الطبيعة العربية كانت أصيلة في نفسه، فلم يطل عهده بالتركية والفارسية حتى عاد يقرأ دواوين الشعراء الأولين ويعاشيرهم ويدرسهم. واستظهر منها ما يعصب له استظهاره. فلما كانت سنة ١٢٧٩ هجرية (١٨٦٣ ميلادية) سافر الخديو اسماعيل مصطحباً معه ابن عمه الأمير يوسف كمال مصر يرفع اليه مكتوبه الأسبوعي الذي اشتهر على ولاته. فحق لسامي البارودي بالخاصية التي صحبته ان يعود مع الخليفة، فتوسم اسماعيل فيه النجابة والطموح، وعاد الى مصر في شهر رمضان من تلك السنة

— ٢ —

عاد البارودي الى مصر في الرابعة والعشرين من سنه يبدأ صفحة جديدة من حياته فقد عقد اسماعيل العزم على ان يعيد مصر سيرتها في عهد جده. فيجب ان يكون لها جيش قوي وأعلام خفاقة ، ويجب ان تعود الى نهضتها في العلم والصناعة ، بل يجب ان تتطلع اليها أنظار العالم كله اتجاهاً جديداً . تقرباً اليها . ويجب لذلك ان تنقل كل ما في أوربا من اسباب الحضارة ، وأن تسير في ذلك بخطىً جبارة تجعل هذا الشاهد المصلح يرى بعينيه ثمرة سياسته وجهوده

ورقي البارودي في رتبته العسكرية اول ما نزل مصر وعين على قيادة فرقتين من الفرسان Les Gardes ففتح رقيه آفاقاً من الحياة أمامه جعل عابسها يبسم له . وزاد في ابتسامها أنه لم يلبث في منصبه الجديد الا قليلاً ، ثم اوفد الى فرنسا مع جماعة من ضباط العسكرية المصرية حيث شهد مناورات الجيش الفرنسي السنوية ، ومن هناك سافروا الى لندن ، فشهدوا من الأعمال العسكرية ما زادهم بها علماً

وعادوا جميعاً الى مصر ، فاذا الحظ يلقي البارودي مفتوح الذراعين ليضمهُ اليه ، فيرقى به في سنة الى رتبة « القائمقام » في فرسان الحرس Les Gardes ، ثم الى رتبة « امير الاي » ليتسلم قيادة الفيلق الرابع من عسكر الحرس الخاص . أي شيء هذا الا أنهُ الجد الذي طمح اليه صبيٌّ ، فصار تيسير له أسبابه. عجز مصر الى الاستانة أما وقد بدأ الدهر يعرف له مكانه ويهيء له اسباب العظمة طائعاً مختاراً ، بل مغتبطاً مسروراً ؛ فقد بدأت الامور تطمئن والعدل يعود الى مصر

أما آن لهذا الشاب ان يستقر ؟ كلاَّ ! فقد شبت الثورة في جزيرة اقريطش (كريت) على الدولة العثمانية بعد أربعة اشهر من تسلمه تلك القيادة . وكانت سياسة اسماعيل ترمي الى مجاملة الخليفة ومساعدته ليبلغ الغاية من اغراضه . لذلك أرسل جنداً يعاون قوات جلالته على قمع تلك الثورة ، ثم كان البارودي « رئيس ياور حرب » في هذا الجند . ما كان أسعده يوم عيّن ، وما كان أشده سعادة يوم سافر ! لقد شعر بسيفه يهتز في قرابه ، وبيده تمسك مقبض هذا السيف لتضرب به الثائرين ، ورأى مجد الجندي يتجلى امامه وهو واقف على سفينة يلقي تحتها الموج المصطخب اشراته الهادئة المطمئنة . فلما رست به السفينة على شاطىء الجزيرة الثائرة خفَّ يتقدم رفاقه مسرحاً بصره في الأودية والوهاد حوله ، مشوقاً أي شوق للقاء الذين خرجوا على الولاء للدولة وتمكبوا عن طاعة السلطان . وأحسن البارودي البلاء في الحرب ، فأنعم عليه السلطان بالوسام العثماني من الدرجة الرابعة . فكل إنعام البارودي عينا وعلى نفسه كان أعظم من كل وسام . في هذه الحروب قال قوليته التي مطلعها :

أخذ الكرى بمعاقد الأجفان فغدا السرى بأعنة الاقلام

كما قال في أبياته التي أشبهها بقوله :

ولما تداعى القوم واشتبك القنا ودارت كما تهوى على قطبها الحرب

من يومئذٍ بدأت الأنظار تتطلع الى البارودي الشاعر تطلع إعجاب وإكبار . لقد ترنم هذا الشاب بأنغام في الشعر لم يألفها أهل زمانه . فهم انما ألفوا عبارة ومرزوقاً . كان محمود صفوت الساعاتي ، أسلم معاصريه ديباجة وأقومهم عبارة ، لا يقول إلا ليمدح أمراء الحجاز أحياناً ، وولاة مصر وسادتها أحياناً أخرى ، يبتغي عطاءهم ويرجو إحسانهم . وكان ما يعرض في شعر هؤلاء المعاصرين من حكمة او فخر قولاً معاداً ، سبقهم اليه غيرهم في ديباجة أمتن ولفظ أكرم . وكانوا جميعاً متأثرين بشعر المتأخرين ، فكانت المحسنات البديعية عندهم كل شيء وكانت معانيهم في جملتها مطروقة متداولة . اما هذه القفزة التي قفزها البارودي فسما بها الى مكان الفحول من الشعراء الأولين في الجاهلية والعصور الأولى من الاسلام ، فقد أثارت عجب الناس واستثارت إعجابهم . وحق للناس ان يعجبوا . فهذا الشاب الشاعر الملهم هو الرسول الذي بعثته العناية لينفخ في الشعر العربي روحاً تنشره من الجمود الذي انطوى عليه القرون الطوال وليمهد السبيل من بعده لأبناء مذهبه : شوقي ، وحافظ ، واسماعيل صبري ، ومن نسج نسجهم وسار سيرتهم

ما الجديد الذي استرعى الأسماع في شعر البارودي ؟ أهو الأسلوب الجزل والديباجة البدوية اللذان تجليا في كثير منه ؟ لكن اسلوب الساعاتي وديباجته كانا لا يخلوان من جزالة وبداوة ، وقد نزع جميع الشعراء إبان هذه النهضة الأولى ذلك النزع ، فان قاسم البارودي وسما عليهم قلا جديد في نزعته . إنما الجديد الذي استرعى الأسماع لشعره ودعا الى الاعجاب به ، هو نزوعه الى تصوير الواقع كما هو في بساطة وسلاسة وقوة ، دون اعتماد على محسنات اللفظ البديعية من جناس وطباق ونحوهما ، ودون اغراب في الخيال ، ان آثار النحب لم يثر الاعجاب

وفي شعر البارودي ظاهرة لعله لم يفطن لها اول الامر أحد . فهو قد اعتمد في تصويره الواقع على حاسة النظر اكثر من اعتماده على سواها . وأنت اذ تقرأ قصيدتيه اللتين اثبتنا مطلعيهما عن حرب اقريطش ترى تصوير المرئيات واضحاً فيهما كل الوضوح ، وترى هذا التصوير سهلاً لا تعمُّل فيه . فهو في القصيدة الأولى يصور الليل الصارب بجرانه فوق الرؤى والمنازل ، لا تسمع في ظلماته غير النصوء المنبعث من أسنة الحراب . وغير الجياد سيوف الثائرين المختفين في جنح الظلام ، وقد أصبح الصبح وأيت هذه الخيل قد غبرت أسنة واعنة كثيرة العدو الجاثم فوقها ، ورأيت الماء أحمر قانياً كثيرة ما يختلط من دم المقتلى به

ونستطيع أن نرجع الى القصيدة الثانية في هذا الجزء من الديوان التي صورة الحرب دائرة الرحى ، والموت ناجمة من الكر والفر في جوها ، والأرض دائرة الأبطال كأنهم

سكارى من وقع الهوى ، والشاعر يرى هذا كله ثم يقول :

صبرت لها حتى تجلت سماؤها وإني صبورٌ إن ألمَّ بي الخطبُ

وتصوير التطور صفة بارزة في شعر البارودي كله . وذلك شأنه بخاصة فيما يزعم فيه أنه تقليد المتقدمين . بل لقد كان هذا التصوير التطوري للمنظورات غايته وهو يقلد . ولائيته المشهورة التي قالها في صباه معارضاً قصيدة الشريف الرضي « لغير أصلا مني الفلا والتجنب » ، والتي مطلعها :

سوى بنجدٍ الأغاريد يطرب وغيري بالتذاذ يلهو ويعجب

فيها من هذا التصوير شيء غير قليل . وأنت ترى التصوير واضحاً في غير تقليد في بائيته التي مطلعها :

بين أيام الصبا وشبابي أنراها تعود بعد الذهاب

وهو يصف في هذه القصيدة مشهداً لمصر تراه أعيننا كما رآه هو ، ويصفه وصفاً قوياً يجعله حياً ناطقاً بكل النشاط والحركة . ولقد قال هذه القصيدة وهو منفي في سرنديب يأسف فيها لذهاب الشباب ويحن الى وطنه ، فاذا الوطن صورة منظورة أمامه يرسمها رسم مصور بارع

ولقد هيأت البيئة التي عاش فيها البارودي هذا الجانب التصويري من شاعريته . فهو منذ عاد من أثر يطش بدفع ثورتها ، قد أقام ثنتي عشرة سنة كاملة بعيداً عن ميادين القتال عين أتاه ها ياوراً (بمية) الخديو اسماعيل ، ثم رئيس الياورية ، ثم اصطفاه الخديو كاتم سره الخاص ثم سافر في رحلتين قصيرتين الى الآستانة في مهمة سياسية تتصل بفتنة الهرسك ، ثم فتنة البلقان واخذ الأسود في هذه السنوات الاثنتي عشرة كانت مصر ميدان حياة ونشاط قلَّ نظيرها في أمة من الأمم : نهض بها اسماعيل بعد النكسة التي أصابتها في عهد سلفيه سعيد وعباس الأول نهضة هي أدنى إلى الثورة منها الى النشاط . أراد لها ان تقف مع الأمم الاوربية في صف الحضارة وان تكافئها في الوجود الدولي وهذه الأمم قد بلغت مكانتها في أجيال متعاقبة بذلت اثناءها جهوداً جبارة لتبلغ ما بلغته . فليضاعف ابو الأشبال الجهود ، وليجعل الزمن رهن أمره ، وليدفع مصر متضافرة معه ، قوية بقوته ، ليصل في سنوات إلى ما وصلت اليه اوربا في تلك الأجيال . وماذا ينقصه ، وينقص مصر لتحقيق هذه المعجزة ؟ العزم ؟ الذكاء ؟ الهمة ؟ البأس ؟ هذا كله موفورٌ فيه وفي مصر . وكل ما عليه ان يتجنب ما وقع فيه جده الأكبر فلا يناصب الدولة العثمانية العداوة فيحوج من نائب اوربا عليه فأما الدين فالحصول عليه يسير . فمصر غنية ، وقناة السويس التي تشق خلالها ستزيدها ثراء وتجعلها مركز الحياة في العالم . ذلك ما يؤكده ديليسبس ، وذلك ما لا سبيل الى الريب فيه . فلتنهض مصر الدين لتحقق نهضتها المعجزة التي تبهر العالم ، ومصر الناهضة الغنية القوية قديرة على اداء ديونها وعلى مضاعفة ثروتها

وأين هو مما يحاضر اسماعيل ان تضارع عاصمته عاصمة نابليون الثالث ، وان تكون القاهرة باريس الشرق ، وهو لم تمض بضع سنوات حتى قامت العصور شاهدة على شاطىء النيل بين الجزيرة

والروضة : روضة المقياس . لكن اسماعيل كان أبعد نظراً وأعمق ذكاء من ان يكتفي بهذه المظاهر فلفتح المدارس ، ومد السكك الحديدية ، وليم الشاطئ المصر أنحاء الدولة جميعاً ، وتطاوع حكومة مصر شركة قناة السويس في الجد والمثابرة ، وليكن افتتاح القناة بين البحرين الأبيض والأحمر مشهداً فذاً في تاريخ العالم كله ، تقع فيه أعين الملوك والساسة على مصر المتحضرة الناهضة بعبء الحضارة كنهوض فرنسة وانكلترا بمثلها ، وعلى اسماعيل مليك مصر ذي الأيد قائماً في ثلمة من السلطان تدوي أمامها أبهة اصحاب العروش في الدول الأوربية كلها

وقد رأيت البارودي في معية اسماعيل ورأيت امين سره . والبارودي شاعر قوي الحس طموح الى العلا ، فلم يكن له بخط فقر به من صاحب العرش ، وجعل الحياة وسرها وفتنتها في ملكه وضوع يده . ماذا يصنع ؟ أقام بخلوان ، وأرخى لشبابه ولهوى الشان العنان . فعرف الشراب ، مجالسه ، والغواني وفتنهن ، والطرب بالموسيقى وبالغناء . وقلب في هذه الأغراض جميعاً ، فما تكاد قصيدة من قصائده تخلو منها . لكنك في حل من ان تسأل أأمعن في الحب وخضع لسلطانه ؟ او بلغ من إدمان الشراب وحياة اللهو ما بلغ الماجنون ؟ أم كان شعره في الغزل وفي الخمر شعر محاكاة اكثر منهُ تحدثاً عن غرام صادق أخذ بمجامع قلبه ، وعن اغراق في اللهو والخمر ولع بهما ؟ أحسبنا في حل من القول بأنهُ كان مقلداً في غزله وفي خمرياته ، وان هوى نفسه كان الى شيء غير المرأة وغير الخمر ، وان حديثه عن الخمر وعن المرأة إنما كان تقدمة الى الفخر والوصف والسياسة وغيرها من الأغراض التي يريد القول فيها ، وانهُ في هذه التقدمة كان ينسج على غرار الأقدمين

وما اكثر ما نسج البارودي على غرارهم ! فهو طالما راض القول معارضاً النحول الأولين ، محاولاً ان يبذهم في دبياجته وفي قوة معانيه . وقد وُفّق للتفوق عليهم في أحيان . وقصّر عن عين مداهم في أحيان أخرى . وكثيراً ما كان يتنقل في معارضاته من بيئته المصرية الحديثة الى بيئة بدوية جاهلية او بيئة اسلامية بالشام او بالعراق في عهد بني امية او بني العباس ، ثم كان يجمل القول في الخمر والنساء ، والحماسة والفخر ، اغراضاً له في القصيدة الواحدة على طراز من حسن قسمه على معارضتهم ، وكانت ذاكرته القوية تؤاتيه فيما يعارضهم فيه حتى تخاله احدهم ، ويختلط عليك الأمر فلا تريد ان تميز بين شعره وشعرهم . ومن كانت هذه حاله لم يكن غزله ولم يكن خمره معبرين عن عاطفة ملتهبة الحب او حركتها الخمر بمقدار ما حركتهُ الحرص على التفوق في حلبة النحول الأولين

وأنت تراه يذكر في حب ما تكاد تفقهُ حكاية حال ، كقصيدته عن غرامه بفتاة خلوان وإما ليقول لك انهُ يرى بأن هذا الغرام لا يزيد على صورة تخيلها الشاعر ، وأقصى ما يدعي له الظن انها صورة رآها في يقظته فتأثر خياله بما رأت عيناه من صوره معاني الغرام ، وهل يملكه

حب ولم يقم بنفسه غرام . فالقصيدة التي تقص هذه الحكاية تبدأ بالخمر والحديث عنها ، ثم تروي حديث هذا الغرام لتنتقل منه الى الفخر بقومه الذين يدعون منه بصارخ هوله ، فهو :

رجال أولو بأس شديد ومجدة فقولهم قول وفعلهم فعل
اذا غضبوا ردوا الى الأفق شمسه وسالت بذفراء القذال حلازن

وانت ترى تداول هذه الصور في الكثير من قصائد شبابه : خمر وخمر ولا ريب في انه كان يحس ما يقوله في هذه الأغراض جميعاً . لكن الذي لا ريب كذلك فيه ان الحب لم يلق له يوماً ، وان الخمر لم تذهب يوماً بعقله ، فأما الفخر فكان يعبر عن مثابه الخلقية وآماله المكظومة

أقام يقول الشعر في هذه الأغراض وفيها يتصل بها ، مشتغلاً بين حلوان والجزيرة ، سعيداً بمقامه الى جانب اسماعيل ، مطمئناً الى حظه بمصر ، الى ان عشرة سنة كاملة . وكما اختزنت ذاكرته الشعر صدر شبابه فقد اختزنت في هذه السنوات المتعاقبة من صور مصر ما زاده حبًّا لها وتعلقاً بها ، وما جعله يتحدث في شعره عنها ويصف بديع مناظرها وصفاً لم يسبقه اليه احد . وصف نهرها الفياض بالخير والنعمة ، ووصف مزارعها الفسيحة تترامى امام النظر الى حدود الأفق ، ووصف آثارها الفرعونية على نحو لعله احدث ما جدد الشعر في عهده . وصف هذا كله مستغلا بوصفه حيناً ، جاعلاً منه بعض موضوعه في قصيدة من القصائد حيناً آخر ، مستمتعاً به في الحالين ، مسبغاً عليه من روعة شعره ثوباً يزيده جمالاً ويزيد المصري له حبًّا وبه تعلقاً

فلما كانت سنة ١٢٩٤ هجرية (١٨٧٨ ميلادية) أعلنت روسيا الحرب على تركيا ، وارسل اسماعيل جيشاً يعاون متبوعه الأعظم . وسافر البارودي مع الجيش ، وشارك في الحرب ، وكرفي عن مواقفه فيها بانعام الخليفة عليه برتبة أمير اللواء وبنيشان الشرف (الميدالية) وبالوسام المجيدي من الدرجة الثالثة . ولم تصرفه ميادين القتال عن قول الشعر ، بل لقد بعث منها إلى مصر من عيون شعره ما جرى بعضه مجرى الأمثال . ومن ذا الذي لا يحفظ قوله :

اذا نحن سرنا صرح الشر باسمه وصاح القنا بالموت واستنفر الجند

وفي هذه الفترة أضاف البارودي الحنين الى الوطن الى اغراض شعره . فهذا الحنين الذي لم يكن بادياً ايام اقربطش قد بدأ في حرب البلقان يظهر قويًّا ، كما ترى في ابيات هذه القصيدة التي في مطلعها

هو البينُ حتى لا سلامٌ ولا ردُّ ولا سرعةٌ يقضي بها حقَّهُ الوجدُ

وظل تصوير المنظور واضحاً في هذا الطور وسموحه في اشعار البارودي جميعاً ، بل ظل يزداد قوة ووضوحاً ، وتزداد فيه الحركة والحياة بنوع خاص . فالبارودي إذ كان يسجل الصور في شعره لم يكن يسجلها في سمتها وسكينتها على ما يوضع به عشاق القصيدة الصامتة . بل في نشاطها وتحركها . حتى رسم أمامك فن الحياة في كل ما تقع عليه عينه ما تحرك به بصيرته

تنسيق الإصلاح

الاجتماعي في مصر

لسعادة محمد الشماوي بك
المستشار الفني لوزارتي الاشغال والشئون الاجتماعية

بسم الله الرحمن الرحيم « ولتكن منكم أمة يدعون الى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر »

« لا خير في كثير من نجواهم إلا من أمر بصدقة أو معروف أو إصلاح بين الناس »

« كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه ، لبئس ما كانوا يفعلون »

« ليس البرَّ أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ولكن البرَّ من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين وآتى المال على حبه ذوي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين وفي الرقاب وأقام الصلاة وآتى الزكاة والموفون بعهدهم إذا عاهدوا والصابرين في البأساء والضراء وحين البأس أولئك الذين صدقوا وأولئك هم المتقون »

« يأيها الذين آمنوا لا يسخر قوم من قوم عسى أن يكونوا خيراً منهم ولا نساء من نساء عسى أن يكنَّ خيراً منهنَّ ولا تلمزوا أنفسكم ولا تنابزوا بالألقاب بئس الاسم الفسوق بعد الإيمان »

« وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان »

« وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحقَّ عليها القول فدمرناها تدميرا »

« ولا يجرمنكم شنآن قوم على ألا تعدلوا . اعدلوا هو أقرب للتقوى »

سيدي سادتي : بهذه الآيات البينات من كتاب الله تبرز الدعوة الى الاصلاح الاجتماعي قوية منيعة ومرتبطة ممتزجة . وتقوم الدعوة على أساس من البر الخالص والعدل المطلق والتعاون على الاصلاح والنهي عن المنكر ، والتحذير من الاسراف في الترف ومن التفاني في الفسوق والزهو بعرض الزائل والزخرف الباطل ، والحض على التضحية بالمال لترفيه عن ذوي الحاجة وردّ الضر الذي مار على الفقير تخفيفاً للبؤس وإصلاحاً لحال السواد الاكبر من أفراد الأمة ، وعلى أسباب الصفح والرحمة النفسية الهدّامة ، والدعوة الى التوحد والتراحم لدوام الحياة

الاجتماعية على قواعد مدعمة بالتقوى والصبر على الشدائد وضم الصفوف لتصد الأحداث مهما تعظم ، يؤازرها إيمان قوي وبشد من عزيمتها روح سامية وثابة

* * *

« مَثَلُ المؤمنين في توادّهم وتراحمهم كمثل الجسد إذا اشتكى عضو منهُ تداعى له سائر الجسد بالحمّى والسهر »

« لتأمُرُنَّ بالمعروف ولتَنْهَوُنَّ عن المنكر ، أو ليسلّطنّ الله عليكم شراركم ثم يدعو خياركم فلا يُستجاب لهم »

« كلكم راع وكل راع مسؤول عن رعيته، فالإمام راع وهو مسؤول عن رعيته، والرجل راع في أهله وهو مسؤول عن رعيته، والمرأة راعية في بيت زوجها وهي مسؤولة عن رعيتها، والخادم راع في مال سيده وهو مسؤول عن رعيته، والرجل راع في مال أبيه وهو مسؤول عن رعيته »

وبهذه الكلمات المحكمات من آثار الرسول الكريم الذي جاء بالهدى ودين الحق يُثبّتُ هذا المصلح الاجتماعي الكبير دعوة الإصلاح في القلوب ويدعو إلى التعاون الاجتماعي دعوة صريحة ويجعلهُ أساس العمران ويشعر الفرد بواجبه نحو نفسه ونحو الأمة بصلح بصلاحها ويفسد بفسادها ويكدح للخير العام ويتألم للأحداث التي تصيب بني قومه فتنغص من مضجعه وتحرمهُ لذة ما قد ينعم فيه من جاه وثراء ، ويفرض العمل للاصلاح فرض عين لا يفرق بين القائمين بالأمر وأفراد الرعية ، ويجعل للؤلاء وهؤلاء ميداناً للاصلاح الاجتماعي يعملون فيه ويحتملون أعباءه ويُسألون عما قدموا من نفع وما دفعوا من ضر وما أصلحوا من أمر ، وما أقاموا من عدل وما حفظوا من أمانة وما ضيعوا من خيانة

* * *

« وليكن أحب الأمور اليك أوسطها في الحق وأعمها في العدل وأجمعها لرضا الرعية ، فإن سخط العامة يجحف برضا الخاصة . وإن سُخط الخاصة يُغتفر مع رضا العامة . وإنما عماد الدين وجماع المسلمين والعدة للاعداء : العامة من الأمة ، فليكن صغوك لهم وميلك معهم »

« ولا يكون المحسن والمسيء عندك بمنزلة سواء ، فإن في ذلك تزهيداً لأهل الاحسان في الاحسان ، وتدريباً لأهل الإساءة على الإساءة »

« ثم انظر في أمور عمالك فاستعملهم اختباراً ولا تولّهم محاباة وأثرة ، وألزم الحق من لزمتهُ من القريب والبعيد ، وكن في ذلك صابراً محتسباً واقعاً ذلك من قرابتك وخاصتك حيث وقع »

وبهذه العبارات البينات والحكم الرائعات من عهد الأمام علي للأشتر النخعي حين ولاه مصر يُوضع أساس الحكم الصالح على قواعد العدل المطلق والحق الصريح ، دون نظر لأي اعتبار آخر ما عليه المصلحة العامة لسواد الشعب ، وما تقتضيه هذه المصلحة من إيثار [illegible]

واختيار لذوي الابلاء الحسن والتنزه عن المحاباة والأثرة والتزام الحق وحده وتقوى الله وحده، وخليق بدولة تقوم على هذا الأساس المتين وهذا الركن الركين أن يسمو بنيانها على كل بنيان، وأن تبقى على الزمان

وما أحوجنا — ونحن نترسم طريق الاصلاح وامتره، ونلقي في جنبات الوادي صرخات مدوية تدعو اليه وتحببه للنفوس وترد القوم عن طريق الغواية وتحملهم على توخي المنهج القويم في الحياة وفي طرائق الحكم — أن نهتدي في دعوتنا بهدى الكتاب والسنة وتأثر سبيل من من رفعوا علم الاصلاح خفاقاً وملكوا الدنيا عدلاً وأمناً عاش الناس في أكنافهما حقبة من الزمان وادعين ناعمين وأعزاء مكرمين

سيداتي وسادتي: أخذت مصر بأسباب نهضة شاملة يرجى أن تتناول ميادين النشاط الاجتماعي والاقتصادي والثقافي جميعها، وأن تتغلغل روحها في مرافقها كلها. وبدأت البلاد تحس العزة والكرامة. يثير هذا الاحساس ماض مجيد، ويحفزها الى استكمال وجوه الاصلاح في شتى الميادين أمل في المستقبل وطيد. والبلاد في حاضرها تواجه أحداثاً جساماً تشد عزمها وتربي فيها قوة الاحتمال وتجعلها أكثر شعوراً بحاجتها لهذا الاصلاح الاجتماعي الذي تنشده لتستحث خطاه، وتذيع مبادئه وتوسع آفاقه وتأمل أن تقيم أركانه على قواعد ثابتة باقية على الزمان. ومصر في نهضتها هذه تنوء بأعباء الماضي القريب، وتواجه أكبر مشكلات الحاضر، وتهيأ لاحتمال أكثر ما يتمخض عنه المستقبل من أحداث. وقد زاد في تعقيد مشكلات الحاضر حاجات الحياة المتزايدة وأعباء الاستقلال ووعورة طريق الاصلاح. ومصر في الوقت ذاته تنوء بتركة ثقيلة خلفها للجيل الحاضر ملابسات الجيل الماضي وما كان يرسف فيه من أغلال عدت من كيانه ونشاطه وأضعفت من إنتاجه المادي والفكري على السواء، والبلاد تحتمل هذه الأعباء في وقت هي أحوج ما تكون فيه الى التحفز لتخطو خطوات واسعة مطردة، تلاحق بها ما تقدم من الشعوب الناهضة وتعوض بها ما فاتها من إصلاح

ومصر قد أشرق نهرها أنق اليها بمقاليد الزعامة راضياً مطمئناً واتخذها مثله الأعلى في نظام الحكم، وسياسته ونظام التعليم وخططه ومناهجه ونظام الاجتماع ووسائل علاج مشكلاته وطرائق الاصلاح في مختلف آفاقه. وهذه الزعامة والقدوة تقتضيانها النهوض بالأعباء كاملة وأن تثبت جدارتها للمقام الممتاز الذي اختيرت باعتبارها حلقة الاتصال بين الشرق والغرب ويقتضيانها أن تكون مثل الصالح والقدوة الحسنة في كل ناحية من نواحي النشاط فيها. ومصر في دور الانتقال في كل مرفق من مرافقها في الثقافة والتفكير والاقتصاد وفي حياتها الاجتماعية وحياتها السياسية، وهي تجتاز هذا الدور في أحوال قاسية وفترة لا تسمح بالتردد ولا التواني

ولا التواكل، ويقتضيها هذا الدور مناعة في الأخلاق العامة والخاصة وقوة احتمال وشجاعة وإقداماً واعتماداً على النفس وتضحيات فدحات ووضع المصلحة العامة فوق كل اعتبار وتوافر الجهود ورعايتها وصيانتها من كل عبث تمليه الشهوات وضعف الشعور بالمسؤولية

ومصر على ما أفاض الله على واديها من الخصب وما تيسر لأهليها من أسباب العيش يشيع في جوانبها الفقر وتحيا الأغلبية الكبرى من سكانها في عوز وبؤس لا تكاد تظفر بالكفاف، تفتك بها الأمراض ويسودها ظلام الجهل. ومعظم ثروتها ليست في يد أبنائها. وريفها لا يزال مباءة لكثير من الأمراض الاجتماعية والجسمانية الفتاكة، مع أنه بضع اليد العاملة التي يقوم على إنتاجها مسرح الثروة في البلاد

ومصر بالرغم من هذا كله لا تزال تتردد في الخطوة التي تخطوها نصلاح الحال ولا تزال الجهود التي تبذل بعيدة عن أن تحقق إصلاحاً اجتماعياً شاملاً، ولا تزال دعوة الاصلاح تلوكها الألسن وتدندن بها بعض القلوب ولكنها لا تكاد تخرج إلى حيز العمل، بل إن فكرة الاصلاح لا تزال غامضة لم تكيفها دراسة عميقة في أمراضنا الاجتماعية لتعرف نوع العلاج الذي يلائمنا ويحدث أثره العاجل في نهضتنا ويواجه مشكلاتنا العامة والخاصة ويجدد القوى ويحفز الهمم. ولا تزال نرجئ الاصلاح ارتجالاً ونذكره لماماً في بعض المناسبات، دون أن نضع له برنامجاً شاملاً يتناوله في شتى مناحيه ويسير به في طريقه المرسومة صوب أهدافه الموضوعة

ولا تزال الهيئات التي تعنى ببعض نواحي الاصلاح محرومة التأييد الأدبي والمادي الذي يمنها على النهوض بمهمتها

ولا تزال برامج أحزابنا التي تتداول الحكم تكاد تكون خالية من وضع برنامج عملي لتحقيق الاصلاح الاجتماعي، العمل على دعم أركانه وجعله سياسة قومية ثابتة تسمو على الخصومات وتستند الى وسائل إيجابية فعالة صالحة للتنفيذ

ولا يزال يعوزنا أهم وسيلة لتحقيق هذا الاصلاح والمضي فيه، وهي تنسيق الجهود المبذولة أو التي تبذل في سبيله تنسيقاً مطبوعاً بطابع التعاون على البر والتقاني في الواجب وموسوماً بوحدة الغرض واستقامة التوزيع، تؤازره قوة الارادة والرغبة في العمل

ومن أخطر ظاهرة في حركة الاصلاح الاجتماعي في مصر انعدام البرنامج الشامل ونقص الدراسة وفقدان التنسيق وضعف الاشراف وتبلبل الرأي في نوع الاصلاح الذي تحتاج اليه وخطة توجيهه وامتناع الاطراد في العمل مما يعوق البناء والتجديد

وقد أتيحت محاولة لتحقيق هذا الاشراف والتنسيق في ميادين الاصلاح الاجتماعي في أوائل سنة ١٩٣٦ عندما أصدرت الحكومة المشرفة بإنشاء مجلس أعلى للاصلاح الاجتماعي

ولكن هذه الخطوة لم تعدُ استصدار تشريع سقط لعدم عرضه على البرلمان ثم طوي المشروع ثم بدأت بعد أربع سنوات أو مايقرب منها محاولة أخرى أعظم خطراً وأبعد أثراً وأكثر دلالة على الاهتمام الحيوي بحركة الاصلاح الاجتماعي، وهي إنشاء « وزارة الشئون الاجتماعية » ولا تزال هذه الوزارة تستكمل عدتها وتهيء قوتها لمكافحة الادواء الاجتماعية التي تهدد كيان الامة، وقد أنشيء لهذه الوزارة على أثر تكوينها مجلس أعلى لتحقيق بوجوده سياسة التوفر على دراسة مشكلاتنا الاجتماعية الكبرى، ووضع أسس السياسة العامة التي تقوم الوزارة على تنفيذها. ولكن هذا المجلس لم يتم تأليفه ومن ثم لم ينعقد للآن، وبقينا حيث كنا نرتجل الاصلاح ارتجالاً دون أن نضع له سياسة ثابتة او نترسم في سبيله خطا واضحة المعالم بيّنة الأهداف، نتيجة بحث شامل ودراسة عميقة لمشكلاتنا الاجتماعية المختلفة

سيداتي وسادتي: إن مهمة الاصلاح الاجتماعي في مصر واسعة الآفاق متشعبة النواحي تكاد تتناول كل ناحية من نواحي حياتنا العامة والخاصة، والمشكلات الاجتماعية كثيرة وخطيرة وهي تتزايد وتتعقد وتزيد في خطرها أنها لم تعالج علاجاً ناجعاً بل لم تدرس دراسة عميقة شاملة، فلدينا مشكلة إصلاح الأسرة المصرية والعمل على أن تكون عنصراً فعالاً في حياتنا الاجتماعية والاقتصادية والتربوية، وتوفير أسباب التماسك بينها والقضاء على عوامل الانحلال فيها، وكل إصلاح لا يقوم على أساس صلاح الأسرة مقضيٌّ عليه بالفشل المحقق. وعندنا المرأة وهي عماد الأسرة أحوج ما تكون الى إعداد صالح يهيئها لأن تقوم بمهمتها الاصلاحية السامية في الحياة وفي محيط الأسرة وفي المحيط الاجتماعي تبني الرجال وتنشيء الجيل نشأة قوية صالحة

ولدينا مشكلة الشباب وكيف نوجهه توجيهاً يمكن البلاد من الانتفاع الكامل بثمرة جهوده في ميادين الثقافة والاقتصاد والاجتماع وتهيئه ليكون عدة الوطن في الملمات وملأ فراغه بالعمل المثمر والتفكير السليم وبغرس فيه فضيلتي الايثار والطموح، ولدينا مشكلة المتعطلين من المثقفين وهي تنذر بالشر كلما تقدم الزمن وتراخينا في حلها على وجه يقي البلاد شرها وعلى الأخص من الوجهة الاجتماعية، دون الحد من انتشار التعليم

ولدينا مشكلات الريف وهي في ذاتها أكبر المشكلات وأبعدها أثراً في حياتنا بوصفنا أمة تريد ان تعيش عزيزة الجانب كريمة قوية، وعلاج هذه المشكلات يتناول علاج البؤس والفقر والمرض والجهل وما تجره من ويلات أهمها انتشار الاجرام وضعف الانتاج وخراب الريف. ولدينا مهمة تنظيم الاحسان الذي يبذل على غير هدى وفي غير سبيله فيذهب ضياعاً دون أن يجني منه نفعاً أو يدفع به غائلة

ولدينا الانحلال الخلقي وما يجره من ضعف صفات الرجولة وعدم الاعتماد على النفس وقلة

الاقدام وضعف روح التضحية وضياع التقة والاسراف في الشهوات . ولدينا غير ذلك كثير مما لا يحده الحصر من نقائص اجتماعية كل نقيصة منها خليقة بأن تشغل شعباً بأسره وتقض مضجعه وتقوض من أركان نهضته . ولا يجوز ان تكون مهمة الاصلاح الاجتماعي وقفاً على الحكومة أو على هيئة بعينها ، ولكنها مهمة تقع على عاتق الحكومة والجماعات والأفراد وكل قادر على ان يضطلع بها بقدر ما يتيسر له وما توافر له من وسائل وما فرض عليه من واجبات . وعلى الحكومة أن تجعل الاصلاح الاجتماعي في مقدمة المسائل التي تعنى بها وتوفر لها من المال والجهود والكفايات ما ينهض بها . وعلى كل وزارة أن تضع لنفسها برنامجاً للاصلاح الاجتماعي يتصل بنوع العمل الذي تباشره ، وعلى كل هيئة عامة أن تخص الاصلاح الاجتماعي بنصيب من كسبها تتناول به إصلاح شأن العاملين فيها . وعلى أصحاب المصانع والمتاجر والمزارع الكبرى ان يخصصوا جانباً من جهدهم وكسبهم للعناية بالنواحي الاجتماعية الخاصة بعالمهم والتي ترمي لاصلاح شأن البيئة التي يتناولها نشاطهم الاقتصادي .

وعلى الهيئات المحلية أن تخصص في ميزانيتها أموالاً للمساهمة في الاصلاح الاجتماعي في دائرة عملها وأن تضع برنامجاً لهذا الاصلاح وتقوم على تنفيذه . وعلى رب الأسرة أن يكون داعية إصلاح في محيط أسرته ، وعلى المثقفات من فتياتنا ونسائنا أن ينهضن بهذه المهمة التي هي واجب وطني مقدس يأتي في المرتبة الأولى من شئون الحياة ومشاغلها

وعلى البلاد حكومة وشعباً أن تحشد القوى وتعد العدة للكفاح في هذا الميدان المترامي الأطراف الذي يقتضينا كل جهد وكل تضحية وكل بذل . فميدان الاصلاح الاجتماعي هو ميدان الجهاد الأكبر : جهاد النفس والفقر والاضمحلال الخلقي والجهل والظلم ، وبغير هذا الجهاد — نقوم به متساندين بإيمان عميق — لن تتوافر لنا القوة التي نستطيع بها أن نكافح عدونا ونكفل سلامة وطننا وتهيىء له أسباب القوة والعزة والحياة الحرة الكريمة

سيدي وسادتي :

تلك أمثلة سقتها عن طائفة من المشكلات التي نواجهها وما تتطلب من عناية وما تقتضيه من جهود لا تستقل بها طائفة ولا تقع على عاتق هيئة بعينها . بل يجب أن تتعاون البلاد على حلها وعلاجها مستعينة بما توافر لها من قوى كامنة وظاهرة . ويجب أن يكون الشباب المثقف رسول الاصلاح في هذه البلاد حيثما ، كل في دائرة نشاطه .

ويجب أن يوضع هذا الاصلاح الشامل برنامج كامل ، صالح للعالم بتناوله في جميع نواحيه بما يحقق التوازن والتنسيق ، ويضم الجهود ويوجهها الى غايتها تحت إشراف دقيق ، تمليه روح اجتماعية وبة

وهنا تظهر وظيفة وزارة الشئون الاجتماعية واضحة والحاجة اليها بيّنة ؛ فهي في نظري وزارة تنسيق للاصلاح وتنظم له تقصاه في نواحيه المختلفة وتستبين بكل الهيئات على تحقيقه وتضع السياسة العامة التي يسير عليها وتشرف على تنفيذه وعلى أنه يجري طبقاً لهذه السياسة المرسومة وتمدّ العاملين على الاصلاح بالنصيحة والارشاد والعون المادي والتأييد الأدبي وتضع من التشريع ما يحقق هذا التنسيق والتنظيم ويوجه الاصلاح وجهته بما يلائم حالتنا وبيئتنا وتقاليدنا الصالحة ، بما يجتنبنا الفوضى والاضطراب والثورة والاشتغال بتوافه الامور والزخرف الباطل

ولعلّ خير ما يبين وظيفة وزارة الشئون الاجتماعية ومجلسها الاعلى ما تضمنه التشريع الذي وضع في سنة ١٩٣٦ ولم تكتب له الحياة وتنفذ وهو التشريع الذي أنشأ المجلس الاعلى للاصلاح الاجتماعي وجعل مهمته « تحري كل ما من شأنه ان يبين بأي وجه من الوجوه على تقدم البلاد الاجتماعي » واختصه « بمراقبة أحوال التطور الاجتماعي للبلاد والنظر في الوسائل والتدابير والاصلاحات التي ترمي الى توجيه هذا التطور توجيهاً يتسق مع خصائص الشعب المصري وتقاليده وملكاته » كما اختصه بالسعي « في التوفيق بين مقوّمات الحياة الاجتماعية للبلاد وبين آثار التقدم المادي . وما استحدث من وجوه العمل الاقتصادية وحوان الحياة الجديدة » . وناط به على الاخص « بحث نظام الاسرة ودراسة الاصلاحات التي تؤكد تماسكها والمحافظة على كيانها وصيانة حقوق الولاية فيها » وأوجب « أخذ رأيه مقدماً في كل مشروع قانون ولائحة ذات صفة أومرمى اجتماعيين أو من شأنه التأثير في أحوال البلاد الاجتماعية » وأجاز له أن يقوم مباشرة « بدراسة أية مسألة اجتماعية أو إجراء بحث أو تحقيق بشأنها والاستعانة بالادارات الحكومية المختصة في هذا البحث وأن ينصح بضرورة إصدار قانون او اتخاذ تصرف إداري معين » . ويجب أن تتخفف وزارة الشئون الاجتماعية مما يثقل كاهلها من تفاصيل العمل الاداري لتتفرغ لهذه المهمة الخطيرة ، وأن تزود بالكفايات التي تستطيع بها أن تسير بسياسة الاصلاح قدماً نحو الكمال

إن شعور الأمة للمزايد بحاجتها الى الاصلاح الاجتماعي لدليل على حيويتها ، وما على الداعين للاصلاح من سبيل إلاّ أن يستغلوا هذا الشعور ويحشدوا قواهم ويعملوا للاصلاح متساندين ، يحزمهم كمو الغاية والتفاني في العمل على سلامة الوطن . وفقنا الله لخير الخالص وهدانا سواء السبيل ، ووقانا شرور الفسوق والاثم والعدوان ، وأعاننا على حل هذه المشكلات الاجتماعية الخطيرة حلا يوفر للبلاد رخاءها وسلامتها وعزّها ويجنبها الثار والزلل وعوامل الانحلال والتخاذل والشقاق : « إن أريد إلاّ الاصلاح ما استطعت وما توفيقي إلاّ بالله عليه توكلت وإليه أنيب »

الطب المصري

بين عصرين

لمعالي الدكتور علي ابراهيم باشا[1]

كثير من الشباب المصريين الناشئين في هذا الجيل ، لا تتجه أفكارهم الى الموازنة بين حالة الأطباء المصريين الآن ، وبينها من نحو أربعين سنة ، ولا يدور بخلدهم أن حالة الأطباء المصريين التي هم عليها الآن تختلف كثيراً عما كان عليه حالة اخوانهم فهم لا يشعرون بالصعوبات التي قامت في طريق اخوانهم المصريين اذ ذاك ، ولا يقدرون المشاق التي استنفدت كثيراً من جهودهم وأوقاتهم حتى استطاعوا ان يذللوها بقوة عزمهم ، وصادق عزمهم

ولقد دفعتُ في الحياة العملية في ذلك العهد كما يدفع كل مبتدىء ، على حالة من العلم لم تصل بعد الى درجة النضوج المرضية ، تموزي التجارب التي هي ثمرة العلم وغايته ، كما انها كذلك مصدره ومنشؤه . فكان من الطبيعي أن اصادف صعوبات كثيرة ، وأواجه مشاق متعبة ، في أعمالي الحكومية ، وكذلك في أعمالي الطبية الخارجية

كان الأطباء المصريون في أعمالهم الحكومية — بمدرسة الطب ، وبمصلحة الصحة — لا يتولون الا المناصب الصغيرة ، لا يتعدونها الى ما هو أرقى منها ، فلا كفاية تشفع لهم ، ولا مقدرة تنفعهم ، في حين كان الأجانب مستأثرين بالمناصب الكبيرة فيها أيًّا كان حظهم . ففي مدرسة الطب لا يسمح للطبيب المصري ان يرقى الى أكثر من مساعد أستاذ ، وفي مصلحة الصحة لا يرقى الى اكثر من مفتش صحة في مديرية أو رئيس لمستشفى بأحد الأقاليم

واعتقد أنكم تدركون النتائج الخطيرة التي تترتب على مثل هذه المعاملة وتعلمون الأثر البالغ ، الذي كان يحدثه في نفوس المصريين ، وتقدّرون ما كان ينتج ذلك من اضعاف العزائم وقتل المواهب ، ونشر أسباب اليأس في النفوس

على هذه الحالة كان الطبيب المصري في عمله الحكومي من نحو أربعين سنة . أما العمل الحر فلم يكن فيه أسعد حالاً ، ولا أهنأ بالاً ، فقد كان المصري لا يثق بطب أخيه المصري ، ولا

(١) مقتطفة من خطبة ألقيت في حفلة تكريمه

يطمئن الأ ني الطبيب الأجنبي ، مهما يبعد مكانه . او يرتفع أجره . فانصرف الناس الى الاطباء الأجانب . ورحلوا اليهم في المواسم والمدن الكبرى ، ما دامو قادرين على الأجر ونفقات السفر ، ولم يكن يلجأ الى الطبيب المصري الا الفقير المضطر الذي أعوزه المال ، وأقعده العدم

كانت هذه حالنا في ذلك العهد . وقريباً سائل يسأل : كيف كان هذا التدهور السريع ، بعد ان سبقنا بزمن قريب ، نوابغ من الأطباء المصريين العلماء ، صيت شهرتهم الآفاق ، حتى كانوا مضرب الأمثال . واليوم كانت تشد الرحال ؟ فهل لهذا التدهور السريع من سبب معقولة ؟

نعم لهذا التدهور السريع اسباب كثيرة : من اهمها انصراف الفئة العظمى من الاطباء المصريين عن النهضة الحرة واقبالهم على الوظائف الحكومية وقصرهم على القيام بمطالب الوظيفة على أيسر الوجوه ، وأدناها الى الراحة ، وأدعاها الى التخلص من المسئولية . ومنها ايضاً حرصهم على جمع المال حرصاً شغل حيزاً كبيراً من وقتهم وتفكيرهم ، فقعدوا عن الدرس ، وفترت عزائمهم في التحصيل ، وكلا مرَّ عليهم الزمن ، أنساهم شيئاً مما علموا به والنسيان آفة العلم والدرس حياته

وهناك سبب خاتي ، كان له اسوأ الأثر وأبلغهُ في هذا التقهقر السريع : ذلك هو انتشار النية والنميمة بين كثير من الزملاء — سامحهم الله — فقد كان بعضهم ينال من بعض بالطعن المر والتجريح المزري ، وينشر ذلك بين المرضى وغيرهم من الأهلين ، فيحط كل منهم من قدر صاحبه ، ويخفض من منزلته . وعرف الناس ميلهم الى ذلك ، فصار المريض يشايع طبيبه المعالج ويتقرب اليه بالطعن في الطبيب الذي كان يعالجه من قبل ، فيكيل له السباب كيلاً ، ويصب عليه الشتائم صبًّ ، ويعتقد ان هذا خير ما يجلب رضا صاحبه وأفضل ما يستدر به عطفه وعنايته . فهذا الانحلال الخلقي الفاضح ، وذلك الضعف الفني المزري ، كان له أسوأ الأثر في فقدان الثقة بالطبيب المصري والحط من قدره ، بين الأهلين بوجه عام ، وبين أرباب المهن الأخرى ، في الادارة والقانون والهندسة ، وما اليها بوجه خاص

واملكم — وقد وصفت لكم هذا الداء وبيلاً ، وصورته لكم تصويراً مهولاً — تظنون انهُ من المعضلات التي تحتاج في شفائها الى مجهود الجبارة ، بل الى المعجزات الفنية وخلق وسائل غير مسبوقة . كلاَّ يا سادة . فكما انكم تعلمون ان عظم الداء لا يفيد حتماً صعوبة العلاج وخطورة المرض ، لا تستلزم دائماً علاجاً شافياً مضنياً . كذلك الحال هنا ، فالأمر في غاية الخطورة . والعلاج في غاية السهولة هو مبدأ سليم بسيط ، وتنفيذه سهل هين ، وهو ميسور لكل انسان ويتلخص في كلمة واحدة هي : الاتقان !

يجب على كل ذي صناعة أو فن أو عمل ان يتقنهُ ، وهو لا يأتي إلاَّ بالاخلاص له ، والاخلاص لدرسه ، والتوفر على مسائله ، فان هذا يؤدي حتماً الى النبوغ فيه ، ثم الى الشهرة

به ، وهما لا يتكرران ، ولا يغمط صاحبهما حقه من الانصاف ، ونصيبه من الاعظام

على هذا الأساس المتين الثابت ، اتفق جماعة من الأطباء المصريين ، وتعاونوا وجاهدوا جهاداً طويلاً ، وناضلوا نضالاً شديداً ، للتغلب على شتى الصعوبات . ومن العجيب المؤلم ان معظم المعارضة كان من بعض اخوانهم المصريين ، أكثر مما كان من العنصر الأجنبي ولكن العاقبة كانت للمتقين

كانت مما اتخذته هذه الجماعة من الوسائل لتحقيق الغرض المنشود ، إنشاء المجلة الطبية المصرية وإنتشارها المنتظم في جميع البلدان الأجنبية المشتغلة بأمراض المناطق الحارة ونجاح مؤتمراتها السنوية في الأقطار الشقيقة والجمعية الطبية المصرية وما ولدت من جمعيات فرعية لشعب العلل المختلفة والصرح العظيم الذي بني لها . وإذ ذاك وضعت المبادىء المستقيمة موضع العناية . وحلت الأخلاق القويمة محل الرعاية . فصار المقام الأول للبحث العلمي المفيد ، والكفاية الممتازة المجدية ، والخلق العالي المتين . وبهذا وما اليه من الوسائل استطاع أفراد هذه الجماعة أن يحلّوا عن جدارة واستحقاق ، محل الأجانب عندما قامت الحرب العظمى . وهنا أتيحت الفرصة للمصريين ، فأظهروا الكفاية الجديرة بنسل الفراعنة العظام ، وأثبتوا النبوغ المعروف عن سلالة العرب الأمجاد . فلم يسع الأجنبي الا أن يعترف فيما بعد بما أنكره من قبل . وعندما وضعت الحرب أوزارها ، لم يكن في استطاعتهم نكران هذا الفضل الذائع ، ولم يعد في مقدورهم النيل من هذا النبوغ الرائع ، فاستمرّ المصريون في المناصب العالية التي شغلوها ، بعد ان كانوا محرومين إياها

أما التقدم الذي أحرزته كلية الطب ، فالفضل فيه راجع الى عدد من اخواني الأطباء المصريين ، على جانب عظيم من الوطنية الخالصة ، والغيرة المحمودة . فمنذ أولاني اخواني الأطباء عزيز ثقتهم بانتخابي عميداً للكلية ، قابلت ثقتهم بي بأضعاف من ثقتي بهم وحزبتهم على اخلاصهم لي بفيض من ولائي لهم . فاتحدت غايتنا جميعاً ، وصدقت عزيمتنا ، على النهوض بالكلية والتقت أغراضنا كافة عند رجاء واحد، وغاية واحدة : الوصول بالكلية الى المستوى الأعلى الذي يليق بمصر ، وبمعهديها الخالدي الذكر على الزمن ، معهد الاسكندرية ومعهد عين شمس

صحت نية هؤلاء الأطباء الوطنيين المخلصين على أن يعيدوا لوطنهم سابق شهرته الطبية ، فسددوا ارادتهم ، وشدوا عزائمهم ووحدوا إتجاههم ، واستسهلوا الصعب في سبيل مبتغاهم . وكنت أضع آراءهم موضع الاجلال والاحترام ، وأسير بتنفيذها ، وأبذل جهدي على تحقيقها حتى تم لنا تكوين هذا الصرح الشامخ . ونعمى لنا تقديم هذا البناء الراسخ الذي لا زال في إمتداده وتجميل تشييده وتحكم نظمه ، وعظم إنتاجه ، عن أندية في أي القطر من بلاد العالم المتحضرة ، بل سمة يفوق الكثير منها

ولم تكن الصعوبات التي صادفتنا محصورة في تدبير المال الضروري لأقامة المباني وإعداد المعامل وتوفير الأجهزة الحديثة ، والآلات البديعة ، ونحو ذلك من سائر المعدات الضرورية ، بل كانت الصعوبة الكبرى في تربية الجيل الناشيء تربية علمية عملية خلقية ، بحيث يسهل عليهم الاضطلاع بأعباء الأعمال التي تسند اليهم ، سواء أكانت هذه الأعمال علمية أم ادارية ، وقد نجحنا — بحمد الله — وبفضل توفيقه ، في اعداد الأطباء الموثوق بهم ، فلا يصعب علينا الآن ان نجد منهم القدر الكافي لسد الحاجة التي تلح علينا الآن — بمناسبة المنشآت الجديدة — عن جدارة منهم ، وثقة مني ، واطمئنان من الجميع . وأنا أعد ذلك أكبر مفخرة لنا نحن الأطباء وأعظم ميزة لوطننا الخالد . وقد أصبح من الأمور المقررة الثابتة أن النبوغ الذي كان يسمى فيما مضى نبوغاً شبه طبيعي قد انحى أثره ، وصار النبوغ الآن على أساس التعليم المتين ، والعمل المثمر ، والخلق القويم . وذلك أكبر أمنية يرجو كل عامل تحقيقها في جميع الأعمال

فالرجل في سن الستين وما بعدها ، يرى ان أكبر سلوى له عما فات من شبابه ، وأعظم عزاء له عما يتوقعه من قرب انتهاء حياته ، أن يشعر بأنه قد هيأ لورثته المستقبل السعيد ، وأعد لخلفائه في الحياة أسباب الرقي والهناءة ، وأحس أنهم قادرون على صيانة ما خلف ، قادرون على الزيادة فيه ، والنفع والانتفاع به . هنالك يستقبل الموت مستريح الضمير ، مطمئن النفس

وانى أنتهز هذه الفرصة الثمينة لأقدم لخلفائنا الأعزاء علينا ، المحبين الى قلوبنا ، نصيحة هي خلاصة التجارب الكثيرة وعصارة البحث الطويل ، تلك هي العناية التامة بالاستمرار في تربية أبنائهم على الطريقة التي ربيناهم عليها والحرص الشديد على موالاة السير بمخلفاتهم ، في النهج الذي سلكناه معهم بدون توقف أو ابطاء ، فان الزمن يسير بدون توقف وبدون إبطاء ، والأعمار محدودة ، والفرص تمضي وقد لا تعود ، وقد يكون التوقف أو الابطاء لحظة سبباً في تأخر الكلمة وداعياً الى تخلفها . وهذا ما نحذره ونحشاه ولا يرضاه لها أبناؤها البررة المخلصون . هذه نصيحتي أرجو العمل بها ، وأسأل الله التوفيق لتحقيقها

انتهيت من الكلام في الشئون الطبية ، وقد آن لي أن أتحدث عن الشئون الاجتماعية . فأما آثار الكلية في الشئون الاجتماعية ، فظاهرة واضحة ، فان شباب الجامعة ، وفيهم أبناء كلياتنا ، يمثلون نشاطاً وقوة ، وذكاء وحماسة . وما وجهت هذه القوى الى أي عمل اجتماعي مفيد الا أثمر ثمرها واضحاً جلياً . فما هو ذا مشروع القرش ، ذلك المشروع الجليل ، الذي بعث بعض الصناعات الوطنية بعد فقدها ، كصناعة الطرابيش وغزل الصوف . فقد استغنت البلاد بما تصنعه من ذلك عما كانت تستورده ، ونمت بذلك ثروة البلاد ، وتهيأت فرصة العمل بين المتعطلين ، فتبع ذلك بعض أهم القرى التي كانت معطلة واستفادت البلاد

من القوى التي كانت مهملة . فأصبحت مصدر خير ، بعد ان كانت منبع شر وبات الأيدي التي كانت بالأمس ، أقرب الى الفساد ، وأسرع الى الشر بات تلك الأيدي أقرب من النفع ، وأدنى الى البر . كذلك كان لشباب الجامعة أثرهم المشكور في مشروع نهضة القرى وفي المستوى الاقتصادي والاجتماعي والزراعي والصحي ، بين طبقات الشعب الفقيرة من فلاحين وعمال ، تلك الطبقات التي لا تزال في حاجة ماسة الى مزيد العناية ، ومضاعفة الجهد لتخفيف بؤسها ، وتقليل شقائها في نواحي حياتها المختلفة ، وهي الكثرة الساحقة في عدد الأمة ، واليد العاملة في تكوين ثروتها ، وتنمية ثروتها ، ومعاناة أشق الأعمال فيها

كذلك كان لهم الفضل في انشاء جماعة انقاذ الطفولة المشردة ، التي هي من عملهم وبفضل جهودهم وقد تم بسعيهم هذا انقاذ فئة من هذه الطائفة الباائسة . ونبهت الحكومة الى شرف غايتهم ، فمدت يدها الى معونتهم ، مما خفف ألم البؤس عنهم وأضعف من وضع الشقاء فيهم ، وان كانت حالتهم تحتاج في ازالتها الى مجهود أكبر وأوسع وعمل أشمل وأعم

***

سيدتي وسادتي : ان الجامعة المصرية ، ومستشفى فؤاد الأول ، لهما اثران خالدان يضافان الى الآثار الباقية الكثيرة التي خلدت الذكر الجميل ، لمنشئها العظيم الملك العامل المصلح المرحوم فؤاد الأول ، فالتقدم العظيم الذي يبدو لنا اليوم في كل نوع من فروع الجامعة الفنية والثمار الفنية التي تجنيها البلاد الآن وستجنيها في أيامها المستقبلة ، كل ذلك بفضل ذلك الملك الراحل الكريم وعنايته وحسن رعايته . فقد كان واسع الاطلاع ، بعيد النظر ، ملمًّا بالمؤسسات الغربية حريصاً على انهاض بلاده وبناء كيانها على أساس من العلم الصحيح والعمل الصالح . وكان لنا المرشد الأمين ، واليد المحركة القوية ، في جميع أعمالنا ، حتى في سن القوانين واللوائح ، فبحكمته وسداد رأيه ، وصلت الجامعة في مدى قصير الى ما لم تصل اليه نظائرها في الأمد الطويل ، أسبغ الله عليه شآبيب الرحمة ، وأعلى مكانه في جنات النعيم

ومن رعاية الله لنا ، وجميل احسانه الينا ، أن جاءنا بخير خلف لخير سلف ، فكان الفاروق الملك المعظم ، خلفاً لوالده فؤاد الأول الكريم ، فأفاض على البلاد من فيض شبابه الرشيد ، وبث فيها روح الجد والدأب ، بتيار من عزمه الصادق الحديد وسار بذلك ما ورث من المجد وزاد ، وأعلى في بناء اجداده وشاد ، وتناولت اصلاحاته كثيراً من شئون الحياة المختلفة وامتدت الى النواحي العمرانية الكثيرة ، والأمل كبير ، في أن تصل البلاد في عهده السعيد الى أعلى درجات الرقي ، وتسمو مراتب الشرف ، بين الدول المتحضرة الكبرى

مدَّ الله حياته وسدد خطاه ، وأدام على البلاد نعمه ، ونعمها بسديد رأيه وحسن تدبيره

فضل العرب

في أدخلوه من النبات وأساليب الزراعة في أوربا [1]

لمحمود مصطفى الدمياطي

إن ثروة البلاد الاسلامية العربية التي طالما بهرت الغربيين تشهد على ما امتاز به مجتمعهم من نشاط مطرد. فقد كان الشعب فيها في مقدمة الزراع ومن أحاسن الصناع وأمهر التجار في العالم القديم. فالزراعة التي تلقوها في أرقع المدارس سواء في بابل أو سوريا أو مصر صارت لديهم علماً محققاً حتى أنهم وضعوا لها تقريبات فنية منظمة على إثر مشاهداتهم وتجاربهم العملية التي أجروها في مهارة فائقة. ولم يأنف أرقهم قدراً من أن يفلح الأرض بيده على الرغم من اعتبار ذلك مما يحط بقدر الانسان في سائر الأمصار الأخرى [2]. وقد قال الزراعي ابو زكريا يحيى بن محمد بن أحمد الشهير بابن العوام الاشبيلي الذي نبغ في أواخر القرن السادس الهجري ما معناه «أن من حرث الأرض وبذرها وجمعها تنتج غذاء صالحاً للانسان والحيوان يكون قد عمل حسنة يثاب عليها يوم القيامة» [3]. وامتاز العرب على الأخص بفلاحة البساتين و (تقليد) النباتات ووصف وراثاه الأرض أ الهيدروغرافيا الزراعية). وكفا يعلم كم كان يهجهم منظر الأزهار وشذاها لا سيما وأن امرأتهم وأغنياءهم لم يبخلوا ببذل المال في سبيل تنسيق حدائقهم

---

(١) اعتمدت في كتابة هذا المقال على كتاب التاريخ العام للاستاذ من أقدم الزراعيين الذي سنة تأليفه كما يستفاد من بعض مصادر الجزء الأول منه (تقديره بين سنة ١٩١٥ — ١٩٢٥ م). المطبوع في باريس سنة ١٩٢٦ (الشركة العامة للأرشيف الأوربي) و (المعربد رحمه الله).

(٢) من قبيل ذلك ما أورده المرحوم محمد بك في كتابه (تاريخ العرب في اسبانيا) من أن الامير عبد الرحمن الداخل لما بنى قصره الشهير بقرطبة وأراد غرس بستانه أحضر بعض الشيوخ الذين كانوا يعرفون ذلك وأخذ يتعلم منهم كيفية الغرس وكان يباشر ذلك بيده في أول شجرة غرست في أرض اسبانيا وهي التي تعرف بالنخلة الامير (كان يواظب على تعاهد هذه النخلة من تعهد وتنقية)

(٣) ويوصف بعض العبارة في المؤلف الذي ضمنه في الفلاحة وطبق فيه معارف عصره النظرية والعملية والأدبية فيما يتعلق بالاساليب الزراعية وتحت ذلك بحثاري في ٣٤ فصلا عن أنواع التربة و خصائص والري و حرث والسقي والحصاد والتنقية وتطعيم الأشجار والتلقيح و الصراع النبات

وجلب غرائب الفروس وأكارم الشجر ومهرة الخيل من البلاد النائية لضمان نجاحها. وبهذه الطريقة ادخلوا الياسمين في أوربا والكاميليا الحمراء والبيضاء والورد الأزرق والأصفر ولم يتطلب ادخال النباتات النادرة تيارا جهداً أكثر مما بذلوه فقد جلبوا الآرز من الهند الى اسبانيا عن طريق مصر وصقلية وقصب السكر عن طريق آسيا الصغرى الى الأندلس والتوت الذي عوّدوه هواء صقلية واسبانيا والقطن والزعفران وبقلة الهيليّون المسماة بلسان الاندلسيين الاسفراج وأول من اجتناها الأمير عبد الرحمن الثاني ابن الحكم ولم يكن أهل الأندلس يعرفونها قبله. والخرشف اي «الخرشوف» والفصولية. ومن الأشجار البرتقال والمشمش والأترج والنخل. قال ابن سعيد والرمان النفري الذي فاض على أرجاء الاندلس وصار لا يفضلون سواه[1] وغير ذلك

ولما كانت ثروة الأرض في البلاد الحارة الجافة في حوض البحر المتوسط تتوقف على تدبير استعمال المياه فقد عرف أهل العراق ومصر منذ القدم طرق تنظيم المياه الجارية واستنباط المياه من الأرض وتوزيعها في ترع الري كما فطنت الحكومات النظامية المتعاقبة بعد ذلك الى ما لارواء الأرض من الأهمية القصوى حتى نقلها العرب عنهم واستخدموها كلما توفرت أحوال المناخ وطبيعة الأرض وأتاحت لهم استخدام الوسائل الدقيقة بعد ما وقفوا على منافعها. وقد عُني الخلفاء بالانفاق من مالهم الخاص في حفر الآبار وتشييد القنوات وضخ المستنبطين عيون المياه أموالاً جزيلة مكافأة لهم. ومن قبيل ذلك ان الخليفة العباسي أبا جعفر المنصور حفر آباراً في طريق الحج الى مكة. وأنفقت زبيدة زوج الخليفة هارون الرشيد مليوناً وسبعمائة الف دينار من أجل قناة. ومن مثل ذلك ان عمرواً بن العاص بعد ما فتح مصر أصلح جسور النيل وترعه وحذا حذوه في ذلك الطولونيون والفاطميون. وأدخل العرب في اسبانيا تمتاجين أو دواليب ذوات قراديس تديرها الماشية وتناطر لحجز المياه وترعاً لتوزيعها في شتى النواحي. وأنشأوا محكمة خاصة لتنظيم أعمال الري وتسوية مشاكله. وأوفى ما صنعوه في بلنسية للاستغلال الزراعي هو منشئات أرواء الحدائق. ذلك انهم انشأوا على بعد فرسخين من مصب نهر التوريا قناطر حجز لتوزيع المياه وحفروا سبعاً من الترع على جانبي ذلك النهر لكل منها سبعة فروع أخرى تتخلل السهل كله بحيث تخرق ما يعوقها من الأرض (واسعة البرابخ) من الماء أو قنوات طالية. وكانوا يفتحون الترع السبع الرئيسية واحدة بعد أخرى حسب ايام الأسبوع فتمتلىء بالماء وتؤدي تلك الترع الصغرى التي كانوا يفتحونها ويغلقونها في ساعات معينة من اليوم. وبهذا النظام كانت كل بقعة من تلك الأراضي تأخذ نصيبها من الماء

---

(١) ذكر ابن سعيد ذلك ان الامير عبد الرحمن الداخل أرسل رسولا يحضر اليه شيئا من الاندلس يقطف صراعيه من بعض ضياعه فاعطى جرواً منه الى سفير من ربيعة ذي جاء به وزرعه فغرس فجمع فاينع واثمر ونمى بعينه في الامير فغرس منه بحضرته الامير أمير الرصافة فاثمر نوعه

رابطة الشبيبة[1]

لخليل مطران

ندائي فيي عابراً وثناءي ... شيماً يطيف في الفداة ثراءي
يرضي أولي الألباب عجّل بينه ... وكان لهم ذخراً وكان رجاء
أتاح زماني مرة أن رأيته ... ولم يوتني بعد اللقاء لقاء
فما راعني إلاّ فتىً في إهابه ... شهدت معاً شيخوخة وفتاء
أطلت إمتحان المسألة وجهه ... وفي محجريه كوكبان أضاءا
تصاءل مرمى طرفه من تحوله ... وطبق أفاقاً سنىً وسناء
وفي صدره بحرٌ من العلم لم يضق ... به ذلك الصدر الصغير وعاء
يحدث في رفق ولبست أناته ... تثبط عزماً او تعوق مضاء
عكوف على التحصيل من كل مطلب ... يلم به مهما يسمه شاء
جنى الروض ما تجري براعته به ... فيحلو شراباً أو يطيب غذاء
وما ثقفت الألباب مثل بيانه ... وما شرّفت الآداب والأدباء
يعوص على الدر البعيد مكانه ... فيجلوه للمستبصرين جلاء
ويبحث عما يفقد الجهل أهله ... فيهدي اليهم زينة وثراء
ويحرص لا يغمط الفضل حقه ... ويعدم بين العالمين جزاء
فمن يذكر القصد الذي فيه يعتذر ... كأن به من أن يذاع حياء

* * *

(١) أثبت لي [illegible] في جبل الشوف بعد الدهر والاشارة في [illegible] رابطة الشبيبة [illegible] سلسلة مقالات الدهر في جبل مطران في السلسلة التي نشرت لي المقتطف وستنشر [illegible]

أنسى لاسماعيل ما عشت منةً أفدت بها أحدوثة وبقاء
حباني بها قبل التعارف مضفياً عليَّ بما لا استحق ثناء
وقد عاق شكري عنهُ فرط حشامه فهل عن جزيء شكر بجيء رثاء
رهيبات ان يوفى بشعر جبلهُ ولو كان ديواناً نفيسٌ وفاء

* * *

ألا أيها الغادي وليس بآسف ولا متقاض لوعة وبكاء
ترفعت عن ان تقبل الضيم صابراً على زمن أحسنت فيه وساء
وجنَّبك العيشَ احتقارٌ لشأنه اذا ما غدا فيه العفاف عفاء
مكانك في الدنيا خلا غير انهُ مليء النواحي عزةً وإباء
بيتك مختاراً صدمت عقيدة وأرغمت حكماً حيَّر الحكماء
وكنت على يسر الأمور وعسرها تثير بعالي رأيك الحصفاء
فغالبك الطبع العيوف على الحجى وأصدر من قبل القضاء قضاء
أمن خطل طرح الأناة وما به من الوزر لم يطهر وقلَّ غناء
وهل ترتضي نفس العزيز اقامة على ذلة وابداء عزٍّ دواء
اذا هان في حب الحياة هوانها فليس لأرض ان تكون سماء

* * *

فرارك وارتع الخلائق حسبها مصانتها الهادين والسفهاء
سيبقى لنفع الناس صحفٌ تركتها وان يذهب الارث النفيس جفاء
وتذكرك الأوطان يوم تخارها اذا ذكرت أفذاذها النجباء
واني لمحزونٌ عليك وجارحٌ ثمانه كأس حسرة وشقاء
أقول عزاء الآل والصحب والحمى وفي ولأمثالي تقول عزاء
فرابطة استيفا أراها قريحة واعتدها فوق الاخاء إخاء

فن التعمية

في الحرب . وأساليبها في الطيران

لعوض جندي

فقد أصبحت وسائل خدع الأبصار الحادة ، وغش الآلات المحكمة لتصوير الضوئي ، التي يتذرع بها الأعداء في الحرب الحديثة على جانب عظيم من الخطورة ، بحيث اضطرت الهيئات الحربية في الدول العظمى ، الى دوام استخدام المتخصصين لاختراع حيل جديدة الاختفاء من الأعداء ، او لاستطلاع خباياهم

ومن حيث ان الغرض من التخفي ، التمويه على المراقبين ، والتغرير بهم ، فقد أطلق على سلاح التخفي في البحرية البريطانية اسم « مصلحة التعمية او تعمية[1] معدات القتال Dazzle Department

ولجأ البريطانيون والفرنسيون في أثناء الحرب العالمية الماضية الى وقاية مدافعهم ، من أعين رقباء عدوهم بخيام شبكية الشكل ، تضرب في مساحات كبيرة من الأرض ، تبلغ الأفدنة وتموه بفروض مختلفة فيستحيل تمييزها من سطح الارض المحدقة بها

أما الألمان فقد ذللوا تلك العقبة الكأداء باختراع مصافٍ نوعية يستطاع بها تمييز الأصباغ الصناعية من خضرة الطبيعة المحيطة بها

ويستعمل الفرنسيون الآن صبغات عضوية أفضل كثيراً مما كانت معروفة في سنة ١٩١٤ ، فلا يستطاع تمييزها بالمصافي الدقيقة التي تتذرع بها العيون البشرية و بالآلات الفوتوغرافية الجوية

ولا شك إن وسائل التخفي في سنة ١٩٤٠ الراهنة أصعب كثيراً مما كانت عليه في إبان الحرب العالمية الماضية . وقد تكفلت الدول الأوربية جمعاء على قياس ورسم المناطق التي يحتمل الاستعداد منها في الحرب . ولديها من صورها الضوئية التي صورت من الجو ، ألوف مسلسلة في أضابير منظمة لترجوع اليها عند مسيس الحاجة . فاذا نبتت عند مقابلة الصور الفوتوغرافية الجديدة التي تلتقط تلك الأماكن في أثناء الحرب ، بصور الأمكنة المحفوظة لديها

---

[1] ... من عمل ... و خشب — ... هو في ثغة ... — ... عليه ... المعمى ... من في عينه الأمر — ... ما ... قوله تعالى ... عليهم الأمر ...

في تلك الأضابير ، أي اختلاف ، كان ذلك دليلاً على إخفاء الحقائق الفديمة ، بوسائل التخفية الحديثة

وكان تحسين التصوير الجوي ، معواناً على ترقية التخفي الحربي . فجعل الناس في العالم قاطبة يجدُّون في سبيل تسفيه الرأي القديم القائل « ان آلات التصوير الضوئي (الفوتوغرافي) لا تخطىء » إذ تسجل الصور الضوئية التي تلتقط من الجو ، سطح الارض على هيئة مجموعات كثيفة من الأضواء والظلال . ولذلك يتوخى الخبير الذي يعهد اليه في وضع وسائل التخفية الحربية ، اتخاذ كل ما من شأنه ، التغرير بآلات التصوير الفوتوغرافية الجوية . ويتخذ المنظر الذي تصوره المصورات الجوية وضعاً رأسيًّا . أما في الحياة العادية فان العين ترى الأشياح موضوعة وضعاً يكاد يكون أفقيًّا . ويشاهد الاقليم المزروع ، من الجو ، كأنهُ حقول مقسمة كتقسيم لوحة لعب الداما ، تفصلها بعضها عن بعض سياجات ولكن الأنقاض التي تؤلف من القرى المدمرة ، والمساحات التي خربتها القنابل ، والنباتات المزروعة في مواضع مفرَّقة ، تبدو للناظر من الجو كشهد مركب تركيباً معقداً . وهذا مما يهيء فرصة فائقة لاجل فن التخفي الحربي الذي توامه الضوء والظلال ، اذ الخبير بفن التخفية الحربية يدرس المنظر العام بفحص الصور الفوتوغرافية ثم يضع خطة عمله وفقاً لها

والسفن أشهر المعدات التي ألف الجمهور اخفاءها في اثناء الحرب . وتوام ذلك الاستتار ، رسم اشكال غير منتظمة بالزيت ، على سطوحها وجوانبها ، فتبدو للرقباء ، صورة خيالها الاسود ، مطموسة ، فتتعذر اصابتها بمقذوفات القواصات التي تسدد اليها . ويقال إن استعمال فنون التستر الحربي ، في الحرب الاوربية الماضية ، كان سبباً في تقليل عدد اصابات القواصات لاهدافها ، الى حدٍّ كبير جدًّا

وفي خلال السنين العشر الماضية ، عملت مباحث عظيمة ، بغية اختراع قواعد علمية لاجل ستر السفن عن أعين الاعداء ، بحيث تبدو لهم ذات هيئة ورسم مطموسين جدًّا ، بل تظهر كأنها سائرة في طريق مخالف لسيرها الحقيقي ، وذلك بإتقان وسائل النكر وخدع البصر ، فمثلاً قائد القواصة مثلاً أن احدى السفن تهم بتغيير مجراها . فيسدد طوربيده اليها على ذلك الاعتبار فيطيش سهمه في اكثر الاحيان . وذلك من اخداع البصري الذي يتوهمُ بشأن حركة ذلك المركب

***

ومن الحيل المضللة الكثيرة الاستعمال في مناطق الحرب الجوية تسيير السفن في طرق متعرجة إذ أن تصويب الطوربيد وغيره من المقذوفات ، يقتضي عمليات حسابية معقدة جدًّا

فاذا ما غيرت السفينة المشحونة مجراها من قبيل صارت تلك العمليات الحسابية عقيمة وأصبحت أصنامها وأجسامها من الامور المتعلقة بالحظ والتخمين. ولذلك اخترعت أجهزة متحركة بنفسها تقود نفسها في طرق معوجة. وقد اتسع نطاق استعمالها حتى غدت نحن في اغلب الأحيان، نحن نرسوم الزيتية التي ترسم على السفن تضليلاً لأبصار الاعداء

هذا مع العلم بأن الغرض من الاستخفاء الحربي، بريًّا كان او بحريًّا، إضعاف الرؤية. فمارجة القذرة السنجابية اللون رؤيتها أشق من رؤية المارجة السوداء او المدهونة بطلاء نضير. ويعتقد بعض خبراء التكر ان المركب اذا دهن دهنًا غير متقن بصبغات شتَّى، متنافرة التنافر جيدًا، اختلطت تلك الصبغات بعضها ببعض عن بعد، اذ تبدو لناظرها ذات لون سنجابي مبهم، تضعف رؤيته عنهُ اذا كان لون المركب سنجابيًّا كاملاً. وتدهن الطائرات بألوان الطيور ذات لجس سطوحها العلوية قاتمة، وسطوحها السفلية زاهية الألوان. أما قاذفات القنابل التي تعمل عادةً في الليل، فتصبغ بالأصباغ السود الحالكة لكي تضعف انكسار اضواء المصابيح الكشافة التي تسلط عليها. وقد تبين من الصور الفوتوغرافية التي نشرتها الحكومة الألمانية حديثاً في برلين، مبلغ ارتقاء الدهن الالوري في ذلك الفن. اذ تمثل احداها تفصيلاً، الصهاريج التي يخزن فيها النفط الضروري جدًّا لانكلترا لمواصلة حرب الحاضرة. فرأى ولاة الأمور في لندن نقل تلك المستودعات من مواضعها الأصلية التي صورها الأعداء من قبل الى أماكن أخرى مجهولة

وهذا مما يوضح لنا أن موارد الأعداء ثابتة في المستقبل، يجب ان يتم عملها قبل ان تمس الحاجة اليها برمي قنابل. فبناء احتفاء محطات توليد القوى الكهربائية ومستودعات النفط وسائر المنشآت المكشوفة للمستهدفة للوجود

وأعرض من المكر الذي يحاكيه الرجعة، بعض الصور العدو وغير آلات التصوير الفوتوغرافي التي يستخدمونها لالتقاط صور المنشآت الضرورية من حيث (١) اللون و(٢) الصور و(٣) العنصر و(٤) الشكل و(٥) الحركة والرؤية. فكانت الوسيلة الأولى التي توسل بها المحاربون في المكر، الاختفاء وراء الأشجار وما الاختباء فيها من الأغصان اختباءً تامًّا ريثما يتم جسمه فيستعد ذلك المختفي

تخفيه في الجزائر

ويجدر بي في هذا المقام أن أذكر لفائدة في هذا الموضوع أن أنشر فيما يلي فصلاً من الاجزاء من كتاب التخفيات الذي في المذكرات والملاحظات الجديدة الذي اصدرته في شباط اي في شهر فبراير سنة ١٩٠٨ :—

الطبيعة أمٌّ عنيفة وأحكامها ثابتة لا تتغير ، حتى أنها لا تسامح الذي ينقض أقل شيء من هذه الأحكام ، بل تعاقبهُ بسرعة واخلاص . غير انها أمٌّ رؤوم أيضاً فتجعل كل مخلوق موافقاً للوسط الذي يعيش فيه ، وتهب كل حيوان ، غطاء خارجيًّا بمثابة حجاب يخفيه عن الانظار ، وسلاح يحارب به الأعداء . ويكون هذا الغطاء موافقاً لمأواه وحالة الجو الذي يعيش فيه فاللون الأبيض أسلم لون للحيوانات التي تعيش في الأصقاع القطبية الثلجية لأنهُ يجعل الحيوان أشبه منظراً بالوسط المحيط به . وعلى ذلك ترى الدبَّ القطبيَّ أبيض اللون ، وهو اقرب الابيض الوحيد . وكذلك الأرانب البرية في جبال الالب والقاقم أو القاقوم « حيوان بلاد الترك على شكل الفأرة الاَّ انهُ أطول ويأكل الفأرة وله فراء أبيض اللون يستعمل في تبطين الملابس » وثعالب القطب الشمالي يبيض لونها في فصل الثلج

***

ومن الطيور ما تتغير ألوان ريشه في فصل الشتاء ، كالقطا على تباين أنواعها فانها عندما يحلُّ فصل الشتاء تفقد ريش الصيف ، وتكتسي ريشاً أشبه بلون الصخور التي تختبيء بها ، وبيض لونها ايضاً ، فاذا مشى الانسان بجانب سرب منها وهو جائمٌ على الجليد لا يشاهد شيئاً منهُ

وقد لا يتغير لون الثعلب ، وهو حيوان بلاد سيبريا يشبه الكلب ومنهُ الاسود لامع والاشقر واهل سيبريا يصيدون الصغار منها فيخصون الذكور منها ويرسلونها ترعى . فاذا كانت أيام الثلج خرجوا للصيد ، فما كان فحلاً قتلوه وما كان مخصيًّا استبقوه على قفاه وأدركوه . وقد تثمن وتحسن شعره ، لأن طباعه لا تجعله محتاجاً الى الابيضاض في فصل الشتاء . ويتغذى الثعلب بالأثمار أحياناً ، وهو خفيف الحركة يثب من شجرة الى أخرى ويصيد الحيوانات الصغيرة بسهولة . وكذلك الطائر المسمى « نقار الخشب » الذي موطنه بلادكندا . فان لونه يبقى أخضر في فصل الشتاء ولكنهُ يبني له وقتئذٍ أخصاصاً على شواطىء الأنهر وبقيات النهاك . ولون الأسد أشبه بلون الرمل فيخفي نفسه بالربوض على رمال الصحراء وخطوط النور تضارع سوق الحيزران العمودية وحشائش النابات الطويلة التي يأوي اليها . وكثيراً ما تأوي الحيوانات التي من فصيلة القط الى الأشجار ذات النشور فتختفي عن الأبصار وراء أوراقها

***

ومن الحيوانات المشهورة الشاذة عن ذلك ، الأسد الأميركي لأن فروته ذات اللون الأحمر الرمادي ، ولون لحاء الشجر ، الذي يتعلق بأغصانه مترصداً فريسته حتى تمر من تحته بجملانه عسير التمييز ولا تفرقهُ الفريسة فتسقط بين براثنه غنيمة باردة . ولعل خطوط النور الوحشي الواضحة تكون سبباً في الخطر عليه ، اذ توجه اليه أنظار الناس والقرود وسكان الغير الوحشية

لا تسير قطعاً فضلاً عن أنها خريصة وسريعة العدو حتى أنها لا خوف عليها في النهار إلاّ قليلاً ولكنها تكون عرضة للصواري في الظلام حينما يذهب للشرب

ويقول السياح إن خطوط الحمير الوحشية السود والبيض تختلط أمام العين في نور الشفق والسحر وتظهر شهباء اللون ، فتتعذر رؤيتها ولو على مسافة قريبة

ويقولون أيضاً إن الحيوانات الكبيرة كالزرافة مثلاً يمكنها أن تخفي نفسها بتشابه شكلها ولونها بشكل ولون الأشجار المتينة التي تكون في أطراف الغابات أو التي تتغذى بها عادة ، وذلك اذا وقفت ساكنة لا تبدي حراكاً البتة لأن البقع التي في جسمها وعنقها الطويل وشكل رأسها الخاص وقرونها تظهر معاً مثل أغصان مكسورة حتى إن الوطنيين يظنون الشجرة زرافة والزرافة شجرة . (تم الفصل المقتبس من مؤلفي)

ثم تدرجوا من ذلك في العصر الحديث الى ألوان الملابس إذ اتخذوا منها ذريعة للاستتار. ويقال إن بعض الطيارين الانكليز يلبس بذلات خضر في الصيف حينما تكون الارض خضراء وأخرى دكناء حينما يصير الخريف أوراق الاشجار الى صفراء

***

ويتضح لنا ان في الاستتار الحربي كان مهملاً او غير معروف في القرن الثامن عشر إذ كان جنود الانكليز تلبس الأزياء الحمر الفاقعة وترحف جموعاً متراصة . وقد استمرت الحال على ذلك للموال حتى نشبت حرب البوير فوضع الانكليز أزياء جنودهم على أساس المقدمة الحربية العملية وذلك على أثر التجارب التي جربتها انكلترا في تلك الحرب فاتخذت في سنة ١٩٠٣ نسيج الخاكي الصوفي وتقضي عادة تصنع بذلات جنودها

والخاكي لفظ هندي معناه ترابي ، ويؤثرون ذلك اللون على سائر الألوان ، اجتناباً لسهولة تعرضه للوسخ ، على نقيض الألوان النصيرة ، ومتخذيه وسيلة للتخفي

أما الولايات المتحدة الأميركية فقد اصطلحت على أزياء ذات لون أسمر زيتوني إذ ثبت أنه أصلح من غيره للتخفي في الأمكنة الحربية . وتلبس جنود الجيش الألماني بذلات رمادية ذات ألوان سنجابية قاتمة ، ملائمة جداً للتستر في الأجواء الشمالية (هذا مع العلم بأن الغابات واقعة على خط عرض لفرنسور في امبركا الشمالية) أما جيش روسيا الروسي فيرتدي جنوده بذلات ذات لون رمادي مزرق . وجيوش المستعمرات تلبس نسيج الخاكي . وارتدت جيوش فنلندا ملابس بيض ، على الميادين الثلجية ، وذلك في أثناء حربهم مع الروسيين ، فحصلوا على نتائج باهرة

وأشهر أمثلة الحيلة الحربية التي وردت في المؤلفات اليونانية القديمة المشهورة ، ما جاء

في الياذة هوميروس حيث وصفت الوسيلة التي توسل بها حينئذ أهل مدينة طروادة القديمة التي حوصرت في الحرب الزوجاني زهاء عشر سنين حتى أتيح أخيراً التغلب عليها وفتحها ، وذلك بحيلة حربية وهي اقامة حصان خشبي ضخم وراء أسوارها . إذ اعلن الجيش اليوناني المحاصر أن ذلك الجواد الخشبي الضخم انما هو قربان ليرقا وهي الآلهة التي كانت حفة على الاغريق ، فكانت تعاون الجيش الزوجاني المحصور ، وكان جوف ذلك الحصان الخشبي مملوءا برجال مسلحين . ثم لجأ سائر الاغريق الى سفنهم متظاهرين بالهرب . فظن الطرواديون أن عدوهم قد تخلى عن محاصرتهم ، فسحبوا ذلك الحصان الخشبي الى داخل الاسوار ، فانهز الرجال الذين كانوا مختبئين في باطن الحصان ، حلكة الليل فهبوا من مخبئهم وفتحوا ابواب المدينة لزملائهم الذين كانوا قد ارتدوا عنها فأشعلت النيران في المدينة وبذلك تمكنوا من الاستيلاء عليها

وقد ارتقى فن التكر الحربي القديم في إبان الحرب العالمية التي دارت رحاها من سنة ١٩١٤ الى سنة ١٩١٨ الى علم من العلوم العصرية . واطلق عليه اسم كاموفلاج camouflage الفرنسي كما تقدم القول فأصبح اخفاء الخنادق والحصون والمدافع وصائدي الاعداء فرادى snipers من حالق ، ومراكز الرقابة ، على أعظم جانب من الخطورة ، إزاء ما تقوم به الطائرات من الاستكشافات الحديثة

وكان قوام ذلك التستر في بعض الأحيان تكديس أغصان الأشجار بعضها فوق بعض على شكل كومة تكوم فوق الشيء المراد اخفاؤه ، وتارة كان يغطى بالجيش المدهون دهناً يشبه لون الصخر . وكانت تقام طوراً ، حصون كاذبة وبطاريات من مدافع مزيفة لفتاً للانظار ومحولاً لها عن الحصون والمدافع الحقيقية . أو تقام حجب من الدخان الكثيف لتخفي زحف الجنود أو مسير السفن

واستعملت كثيراً القواعد الخاصة بالتلوين الواقي الموجود في عالم الحيوان ، اذ كانت المدافع والطوربيات وقطرات السكك الحديدية وما اليها ، تدهن بخطوط متعرجة من الطلاء أو بلطخ سود وبيض لكي تخفي حدود الأشياء المرسومة عليها . وكانت السفن تخص بهذا الضرب من ضروب التمية الحربية ، ومعظم الغرض من ذلك ، إطاشة مقذوفات العواصات التي تهاجمها عن أهدافها ، لا مجرد الاستتار عن الأنظار فقط

وفي الحليفة (كما قدمنا) وسائل للتكر أو التلوين الواقي كما يسميه علماء الطبيعة . وغني عن البيان أن خير الألوان للحيوان الذي يقضي حياته جدًّا في توقي أخطار أعدائه ، هي ما صبغت وزينها إياه . ولذلك ترى سلالات لا تحصى من الحيوانات قد اكتسبت ذلك التلوين تدريجاً إكتساباً كاملاً قد يكون مدعاة للدهش أحياناً

وأصح الأسئلة ما يوجد بين أعجز الحيوانات دفاعاً عن نفسها ، وأخصها ما كانت وسائلها الدفاعية ضعيفة او معدومة كلية . وهذا يكاد ينطبق على أغلب المخلوقات الصغيرة السباحة ، في البحار ، وصغار كثير من السمك ، إذ هي شفافة اللون فتختفي في الماء اختفاء تامًّا . ومنها صغار سمك الخبات (الخنكليس) فهي شريطية الشكل زجاجية اللون

وجميع السمك تقريباً ، وطائفة من الحيوانات التي لا سلاح لها للدفاع عن كيانها ، سوى الطيران ، ذات ظهور ضاربة الى الزرقة ، كي تصعب رؤيتها تحت سطح الماء . أما الأنواع التي تعيش قريبة من الشاطىء وهي شفافة اللمان والديدان تتكون طبقية اللون حينما تنزع منها قرونها (شوربها أو لامسها) والحشرات التي تدب على الارض ، وما يكبرها من الحيوانات التي تعيش في الخلاء ، مثل الضفادع السامة ذات القرون ، تكون ألوانها مثل التربة او الرمل المحيط بها فتتعذر رؤيتها . وهذا ينطبق انطباقاً صحيحاً على ألوان الحشرات التي تأوي الى أوراق الأشجار والشجيرات او الى الحشيش وتتغذى بها ، حيث تختلط بلونها الخضر ، او الخضر المجزعة فلا تنسى رؤية هاتيك الحشرات والحيوانات إلاَّ اذا نزعت من بيئتها الطبيعية وتشتد في بعض الحيوانات الصغيرة غريزة التخفي في أراضي الخراج ، فيستطاع التقاطها منها . حيث توجد

وهذا يوضح لنا مسألة خطيرة وهي إن الحيوان المؤذي لا يلحقه خطرٌ عظيم في اكثر الأحيان ، حتى كان لشيوعاً بغضاً . ويشتد افتقار هذا الحيوان الى السلامة التي يكتسبها من لونه حينما ينضر الى الواحة او النوم او العناية بصغاره . ومن ثم يكون اللون الواقي ، أنفع للطيور . وهذا يفسر لنا سبب مساطة ريش أناث كثير من أنواع الطيور وزخرفة ريش ذكورها . ومثال ذلك طائر الدج الاميركي [illegible] وزميله الشرشير [illegible] (٢) اللذان يقوم ريشهما الاخضر الزيتوني لدرجة ما صوناً جيداً . فاذا تهددهما أي خطر لا يموتهما ريشهما عن الفرار ، الفرار حيث شاءا . أما أمهات تلك الطيور فتبث جاثمة في وكارها دائماً محافظة عليه حتى لا تكاد تشاهدها مريباً . ولو كانت تلك الأمهات جذابة الألوان لاستطاعت بعض أنواع الحيوانات المفترسة الاقتناص عليها ، فما أبدع حكمة الله تعالى وما أعظم رأفته بمخلوقاته الصغيرة التي تفلت الانسان عالم بعلم

وهذا ما يجدر بنا ذكره قول [illegible] في جملتها منذ بضع سنين عنواناً بقلمي سبق في مقتطف فبراير سنة ١٩٣٤ وهو (الصيحة رائد المخترعين)

---

(١) [illegible] (٢) [illegible]

الأدب الفرويدي

Freudian Literature

الدكتور براهيم ناجي [1]

سيداتي وسادتي : يجدر بي قبل أن أتحدث عن « الأدب الفرويدي » أن ألقي نظرة على « النظرية الفرويدية » . لقد مات « سيجموند فرويد » وأصبح لا يتحدث عنه انسان ولا سيما في أيامنا هذه التي يكتوي فيها العالم بنيران الحرب

ولقد اقترنت وفاته باعلان الحرب وهو كيهودي كان قد نفي مع المنفيين . كان شيخاً مريضاً وكان ينتظر جزاء حسناً على ما بذله من جهد ونشاط طيلة حياته . وقف مرة في باريس أمام تمثال ضخم متفوش عليه صورة وحش وأخذ يقابل بين صورة ذلك الوحش وبين الجانب غير الانساني في النفس البشرية . ولعلّ من الغريب أن نعلم انه قد بنى نظريته على « الحب » وتصور بنيانها على هذا الأساس مدى حياته إلا انه عاد في النهاية وتصور وجوب بنيانها على « البغض » ان ذلك الرجل المتفائل قد انقلب في أخريات أيامه الى صورة من أقوى صور التشاؤم . ولقد ذهب قبل وفاته ببضعة أسابيع لزيارة الفيلسوف « برجسون » وكان هذا الفيلسوف الفرنسي الكبير مريضاً . فكانت زيارته له مسلية رائعة . لأن الفيلسوف الفرنسي الكبير والعالم النفساني العظيم قد وقفا الى نتائج واحدة اتاه بحثهما في تلك الزيارة . تلك هي النتائج التي تتعلق بطبيعة الانسانية ومصيرها . فقد انتهيا على أن الجوهر فاسد وان الصندوق مكسوٌّ بالصدأ وانه مهما وضع فيه من جواهر فانها لا تزيل من صدأه شيئاً وان كانت تضيف الى الثروة التي يختزنها هي لا تفعل شيئاً في فساد اللبّ ولا تمحو الصدأ الذي يغلف الصندوق . لم يعش « فرويد » طويلاً ليحكي بتحدث عن كيفية نشوء الحياة من « البغض » ولو عاش لكانت أمامه فرصة سانحة ليقيس بنفسه الحجم الذي يعيش فيه العالم الآن

فلنقرر أنه يقوم نظريته الأساسية على « الحب » ومتناقضاته وتشعباته . فقد نص كثيرون

(١) [illegible] لا تكاتر [illegible] ناجي قسم اللغة الانكليزية بكلية الآداب بالجامعة المصرية

ان «فرويد» هو الذي اكتشف العقل الباطن ولكن العقل الباطن في الواقع عرف منذ زمن بعيد وان كان قد اتخذ اسماء عديدة . أما فرويد فقد أماط اللثام عن الغموض الذي لازم وظائفه فحدَّد نموه وأقامه على أسس علمية . وهذا لعمري فضل كبير نعزوه اليه . على انهُ قبل ان يستطيع «فرويد» بأبحاثه النفسية كانت «السيكولوجية» مرقمة ترقيماً فلسفيًّا أو كانت بحثاً من أبحاث الفلسفة يضم أشتاتاً مختلفة لا رابطة بينها . واذا ما ظهر في ثنايا تلك الأبحاث نقص كان الفلاسفة يرجعونه الى أسباب وعبارات تنقصها الدقة ويعوزها الاحكام او انى معان تحتاج الى الوضوح . او كانوا يتناولونه بالتطبيق غير المحكم . هذا ما كان قبل فرويد أما بعده فقد تغير الوضع و نحن نرى الألفاظ الخاصة بالحب والتأثر والانفعالات وما يقيمها من الاصطلاحات «كالأفكار الثابتة» و«الأمراض العصبية والنفسية» وكذلك عناوين الموضوعات مثل الهستيريا والنورستانيا كانت جميعها مختلطة اختلاطاً مشوهاً بل كانت مطبقة تطبيقاً خاطئاً وكانت مفهومة فهماً سقيماً وهذه كلها قد فهمت الآن فهماً صحيحاً وطبقت تطبيقاً حقيقيًّا

ويجدر بي الآن ان ألخص معلوماتنا عن نظرية «فرويد»

اولاً : ان فرويد حدَّد وظيفة العقل الباطن كما انه بين قوته الهائلة . وهو لم يبتكر فكرة العقل الباطن وانما وضع تصميم بنائه وأبان وجه مكانته وقوته الخفية بل ابان «فرويد» ان العقل الباطن له الشأن كلُّ الشأن في حياتنا وان لنشاط العقل الواعي ضئيل الأثر

ومن الخير في هذا المقام أن نصف ذلك البنيان . فالعقل الباطن أشبه ما يكون «بمخزن» يحوي أثمن مواد الحياة . هنالك نجد الغرائز والأخلاق الموروثة والصفات السلالية والذاكرة والذكاء والطرفة وبين هؤلاء جميعاً تنبثق من الأغوار شجرة مورقة مزهرة ندعوها شجرة «الذات» . ومعظم الشجرة غائص في الظلام مغمور في الفناء ولا يرى النور والوعي منها الا أقلها الرقيقة . أما الغرائز فمتساوية في العدد ومتشابهة في الناس جميعاً وتحت براثنها تتحرك «الذات» بتأثر ولكن لما كانت هذه الغرائز بدائية وغشيمة ولا بد من التحكم فيها فهذه «الذات» تصبح عرضة للانقسام . فجزء منها يمثل عمل «الرقيب» [illegible] وهذا ما تدعوه «الذات العليا» [illegible] أو الضمير — وهو مركز الشعور بالاثم الذي يقترفهُ الانسان دون أن يشعر فيحدث روعة عليهُ فهو دائماً يراقب الغرائز من ناحية كما يثير من الناحية الأخرى أمام «الذات» ضروباً من النزاع أشبه بالمنازعات التي تقوم بين أفراد الأسرة الواحدة . وهذا النزاع له شأن عظيم ليس بالقياس الى تفهم الأدب الفرويدي فقط بل بالقياس الى تفهم أنفسنا أنفسنا . ولكي نحلل الحالات العاطفية التي تستولي علينا زمناً طويلاً «[illegible]» ونفهم تماماً التعقيدات المجازية لانقباض النفس أو لانبساطها مما يمكن أن يصل الى درجة الشذوذ ،

يجب ان نقول ان هناك نزاعاً بين الذات وعالم الحقيقة وبين الذات والذات الغيرا وبينهما وبين الغرائز

ثانياً اعتقد فرويد ان الغريزة الجنسية المنزلة الأولى فدعاها «الطاقة الجنسية» [illegible] ولقد حد تلاميذه من قائدة نظريته بتسميتهم هذه الطاقة باسماء مختلفة منها قوة الحياة «Force [illegible]» أو «الدافع الحيوي» [illegible] كما دعاها برجسون . أو «إرادة القوة» [illegible] كما سماها آخرون . وأعظم مناحي التباين في هذه النظرية أن الحضارة قد حددوها دائمي التظلم على مدى العصور لتحديد «الغريزة الجنسية» وضبطها والافادة منها وهي الغريزة التي تشتد لذتها ولا تبالي العرف أو العادة

وأحدث الآراء يؤيد وجود ثلاث غرائز أخرى أقوى من الغريزة الجنسية وهي البغض والتعدي والتحدي وهي تسبب بثورتها جميع الاضطرابات العقلية في العالم . وفي الحق نجد أن مهمة الحضارة هي التحكم في دوافع التعدي هذه والسيطرة عليها . أما الحب فأمره متروك لنفسه فالحضارة إذن هي إخضاع الغرائز سواء كانت تصدر عن الحب او البغض

ثالثاً تعتمد نظرية فرويد على الصراع وتوصف بالديناميه أي الدافعة أو المتطورة على قوة التحريك وقد رأينا أن هنالك العالم الداخلي بصراعه الشديد ومراقبه الأعلى وتوزه الدائم ووحشه الضاري الشديد الذي يراقب مراقبة دقيقة . ثم هنالك العالم الخارجي الذي نسميه عادة عالم الحقيقة والواقع . وتعرّف الحياة تبعاً لفرويد بأنها التفاعل المتبادل بين الحقيقة والنفس . فاذا كان هذا التفاعل منتظماً والتبادل بين الجانبين متكافئاً اعتبر الشخص سويّاً [illegible] والواقع إننا نعتبر أسوياء، أو غير اسوياء تبعاً لما نصل اليه من مقدرة على التصرف في عالم الحقيقة فاذا عشنا في عالم خاص بنا وحدنا كنا «داخليين أو باطنيين» [illegible] أو منطوين على أنفسنا وإذا كنا على صلة بعالم الحقيقة أصبحنا «خارجيين» [illegible] فالشعراء والمفكرون والفلاسفة كلهم باطنيون أما العلماء والنقاد فمن الخارجيين

لخط الحب والبغضة الجنسية يعتبر من المنزلة عند بعض الكتاب الفرويديين بحيث يصبح فكرة ثانية . ويزعم هذه المدرسة الزوري «يونغ» وأتباعه يضيف الى ذلك شيئاً آخر وهو انه يجاوز ان تمت في جميع مؤلفاته ان الحياة ان هي الا رد فعل بيولوجي من الكائن الحية ليشبه وقد صورت «فرجينيا[1] وولف» الانسانية كأنها خلية وأشباح تتحرك في جو خاص لخبرة

---

[1] فرجينيا وولف كاتبة انجليزية تتميز [illegible] أنجليزي [illegible] وقد [illegible] والكتب [illegible] وهي [illegible] كان [illegible] كما [illegible]

فيه فليس في رواياتها قصة بحيرة ولكنها صور اشخاص تتراك في جوّ معين

ذلك رأي فرويد ونتائج مدرسته بالنسبة الادب وهو يلخص في الصراع الأبدي في النفوس التي بلغ فيها التوتر مبلغاً كبيراً وبعبارة أخرى النفوس التي فقدت شخصيتها

يروى عن «بول فاليري» الشاعر الفرنسي العظيم انه بدأ حياته كشاعر باطني وان عينيه كانتا بالفعل تلتفتان كأنهُ ينظر الى داخل نفسه . ثم لما بدأ ينظر الى العالم أخذت عيناه في الانفراج تدريجاً واتخذتا شكلاً يتفق وآراءهُ الخارجية وبعبارة موجزة فقد يكون الناس باطنيين او خارجيين تبعاً لعلاقاتهم بالحقيقة والواقع

ومن أهم اجزاء النظرية الفرويدية الجزء المتعلق بالطفولة فالطفل صورة مصغرة من الرجل الكامل النمو ولا نستطيع أبداً ان نفصل انفسنا عن صلاتها بالماضي . فأحسن الشعر وأجوده ما كان يعيش على الماضي وخير القصص ما كان غنيًّا بالذكريات الفنية . وقد بيَّن ركلن ان اشهر المصورين يحمل في نفسه جرثومة طفولته وبيئته الأولى ووطنه الأول فاذا ما اراد ان يصبح «اجنبيًّا» عن ذاته الأصيلة فانه يخفق عادةً . ومن أهم مميزات الخصائص النفسية في الطفولة خيال الطفل

قد يستمتع الطفل ان ينشىء قصة وينسجها ويصقلها ويبدو ان هذا الخيال فطري الى حد بعيد ولكنه خاصة انسانية موروثة تبلغ حدًّا كبيراً من القوة . وقد بدأت آداب الأمم جميعاً اثراً من نسج الخيال فكانت في البدء وصفاً بسيطاً تتسلسل فيه الحوادث بشكل طبيعي او غير طبيعي بغير محاولة ما للتحليل او التعمق الفلسفي . فاذا ما تمت الحضارة ظهر التحليل النفسي او السيكولوجي وظهرت القصة العلمية والمعقدة ويجدر بنا ان نلاحظ اننا نتأثر عن انسانيتنا بتأثير الكحول جرعة جرعة فاذا ما أفقنا أصبحنا من رجال العلم والرياضة واستطعنا الحساب . ولكننا نبدأ في التحدث بعد الجرعة الأولى من الكحول ثم يشتد صخبنا ويزداد حديثنا بعد الجرعة الثانية فاذا ما تناولنا الثالثة والرابعة عدنا الى البربرية والعدوان وهكذا حال الانسان . وبعبارة موجزة يعتبر الخيال أهم خاصية موروثة منذ الطفولة وهو أساس الأدب كله وان تلك التخيلات الطفلية هي زبدة الآداب الكبرى فليس أوديب [illegible] الا لعباً صبيانية ولكنها تظهر عظمة شاكسبير

ومن أهم أسس النظرية الفرويدية «الأحلام» في الطفولة نجد أحلام اليقظة [illegible] وهي القصص الطبيعية التي تحدثت عنها . الآن أحلام الليل لها دلالتها

(أ) هي — أي أحلام الليل — تمثل انواع الصراع الخفي والرغبات المكبوتة ولكنها تبدو بشوية نصراً لأنها تعتبر وسيلة من وسائل الدفع عن النفس او تظهر في صورة مبالغ فيها

اوصورة رمزية الآن قاموس الأحلام معروف جيداً . ونعتبر احوادث الفرويدية المشهورة أمثلة له . فقد حلمت احدى الفتيات انها علقت ثيابها الى قمة البرج ولكنها سقطت فجأة من ذراعيه . ذلك ما حلمت به ولكنه كان كافياً تماماً لفهم حالتها وعلاجها . وهذا النكت اهم نواحي السيكولوجية الفرويدية فجميعنا نكت وغالبنا ولا سيما حين تكون الرغبة قوية جداً يتعسر ارضاؤها او اذا كان استعداد الشخص ملائماً والعنصر الوراثي متغلباً بحيث يثير الصراع والاضطراب في الذات فيفقدها او يفقدها صفتها الشخصية تماماً

(ب) وترتبط الأحلام ارتباطاً وثيقاً بالطفولة . ومعظم محتويات الأحلام ذكريات الطفولة او الذكريات الجنسية وغيرها . وعلم الأحلام مهم جداً في الأدب الفرويدي . وفي الحق إن الغالين في التجديد يرون انهُ لما كان الأدب وصفاً وتصويراً للحياة وانهُ لما كانت الحياة حلماً من الأحلام ينشأ من ذلك انهُ ليس هناك بداية أو نهاية ولا هناك ارتباط أو تسلسل منطقي في الحوادث . وعلى ذلك يجب أن يكون الأدب أشبه بالأحلام أي انهُ يجب ان يكون رمزياً متقطعاً لا ترتبط فيه الحوادث . وليس لهُ بداية ولا نهاية ولا تسلسل وانما هو نظرة خاطفة كما لو كنت تنظر من طائرة محلقة . وزعيم هذه المدرسة هو « جيمس جويس »[1]

ومن أهم نواحي مذهب « فرويد » خط الحب الشهير الذي يجب علينا جميعاً أن نفهمه فهو يكون في البداية متركزاً في الذات، ثم يصبح متركزاً في الأبوين، ثم في الجماعة، ثم في الأفراد من نفس الجنس، ثم في الأفراد من الجنس الآخر . إلاَّ أنهُ ليس هناك حد فاصل تماماً بينها وأي التواء في هذا الخط الفاصل أو تعطيل يؤدي الى كارثة نفسية . فهذه الأعراق تتصل دائماً بالسنوات الخمس الأولى من حياة الطفولة التي تشكل كل مميزات هذا الخط فيما بعد

وينقسم الكتاب الى طوائف مختلفة تقرب أو تبعد عن التذوق . فهناك كتَّاب الأحلام الذين يكتبون من غير ارتباط أو غرض محدود ، وهناك الكتَّاب الذين تملكتهم فكرة الجنس ويتدفقون معها الى حد بعيد، وهناك الكتَّاب المرضى بأعصابهم فيصورون لنا عادات ذاتاً ليس فيه شيء سليم ، وهناك كتَّاب البيئة الذين يطلقون اعظم النشأن بالجو الذي نعيش فيه ونتحرك . واخيراً نجد الكتَّاب الذين يكتبون عن الهستيريو والرغبات المقيدة

وأغلب ذلك من الكاتبات كالسيدة فيكي باوم التي تصوّر لنا عادة نحلل نفوه وخبايا نفسه الآثام . ولعلي بهذا القدر اكون قد وفقت الى شيء عن الأدب الفرويدي

---

(١) جيمس جويس زعيم مدرسة ادبية حققت انتشاراً كبيراً . وهو ايرلندي ولد سنة ١٨٨٢ وتلقى تعليمه في الادب الفرنسي فقد تتلمذ الاستاذ [illegible] في باريس ولا [illegible] وعاش [illegible] وقد [illegible] بعيداً عن [illegible] وكتب [illegible] وقد [illegible] باريس وقرأه بالفرنسية

نظام

ديوان الاستخبار في الهند

في عهد المسلمين

للسيد أبو النصر احمد الحسيني الهندي

— ٢ —

أنبأنا في المقال السابق أهم مناصب الادارة ووظائفها. ويظهر لنا من القاء النظر في واجباتها المختلفة ومن تطورها فيما بعد ان اصحاب تلك المناصب والوظائف كانوا يقومون بخدمات هامة لا غنى عنها الحكومة في العالم. فانها كانت تتراوح بين مواصلة البريد الرسمي، وتفتيش الاعمال المالية، واستخبار احوال النظام والقائمين به، واستنباء حوادث البلاد ثم ابلاغها الى اولي الامر. وما من حكومة قامت وترعرعت في محبوة عن تلك الخدمات

على ان حياة الحكومات والدول رهينة بقدر يقظتها على الدفاع عن حدودها فلم يكن ولاة الامر حينئذٍ في غفلة عنهُ، لذلك فأقاليم الحدود كانت موكلة بضابطهم اكثر من غيرها. فمنذ « سواغ نويس » — وهو الذي كانت واجباته أوسع من واجبات « وقائع نكار » — كان تلك الأقاليم. ولم يكونوا يختارون لهذا المنصب الا من كان ذا جاهٍ وشرف وكفاية وخبرة. فهو كان يرسل التقارير السرية أسبوعيًا عن كل ما يهمُّ الحكومة مثل غارات الأجانب على الحدود ونيات الحكومات المجاورة لها، والتعدي على الحدود سواء أمن قبل الدول المجاورة كان ذلك أم من اصحاب الأملاك عندها وعلمٌ جرًّا

أما الأقاليم الأخرى فكانت مقرد « وقائع نكار ». وهؤلاء مثل موتيتور Monitor في فرنسا كانوا أوثق اتصال لدى الحكومة لجس نبض البلاد واستقصاء احوالها. والبيان الذي كانوا يقدمونه الى الحكومة اسبوعيًا كان يسمى « راتمة »

سارت الادارة في طريق التقدم سيراً حثيثاً بمثابرة هؤلاء ولاة الأمر فقطعت شوطاً بعيداً من الرقي بخطى واسعة حتى اتسع نطاقها عما وصفناه آنفاً في عهد الملك الفولي العظيم جلال الدين اكبر[1] فأصبحت سجلاً وتمثيلاً هامًا لأحوال الحكومة وسياسة الملك وحوادث البلاد وساعدت في

---

[1] اكبر ملوك المغول في الهند تولى الامر من سنة ٩٦٣ هـ الى ١٠١٤ هـ (المترجم)

هذا العهد الزاهر الى اسمى الغايات وقصد بها أقصى المدى الذي يقدر ان يتوخاه أرقى الدول وأحسن النظم . وذلك ما كشف لنا قناعه السامي الجليل « ابو الفضل » وزير ذلك المذكور في كتابه الثمين « آئين اكبري » الذي هو دستور لحكومة المغولية حينئذ وسجل نافع لنظام الدولة واحوال البلاد في ذلك الزمن الذهبي ، وهو نظام لم يقدر حاكم من الحكام في بعد ان يستغني عنهُ في تدبير أمور الحكم في هند سواء أكان من الهنود أم من المستعمرين . واليك ترجمة تلك الغاية العلية قال : —

« ان عناية جلالة الملك (يهده الادارة) ان يقام كل واجب احسن قيام لا يزاد ولا ينقص بغير موجب في مصلحة ما ، وان يعزل الخونة ويكرم الأمناء ، وان يشتغل الموظفون النشاط المجتهدون بلا خوف ويوقف المقصرون الكثيرو النسيان » [1]

لم تكن اعمال الملك بنفسه بمعزل عن التسجيل في تلك الادارة ، وذلك لانهُ لما كان الملك حينئذ كالروح في جسم الأمة ، صاحب أمر يمتثل ونهي يمتثل عنهُ ، ومدبّراً لسياسة الحكومة ومرجعاً لاصلاح الفاسد وقوة لاقامة العدل ، ويداً لاغاثة الملهوف ، كان أولى من غيره طبعاً وأجدر بان يسجل اعماله واقواله ، ويقيد سكونه وحركاته ، ليقتدي الأخلاف بعده بمحاسنها ، ويجتنب عن مثالبها . وعليه فالوزير الجليل ابوالفضل قد أماط اللثام لنا في كتابه « آئين اكبري » عن الحيطة التي كانت تؤخذ ، والدقة التي كانت تلاحظ ، والاستقصاء الذي كان يراعى في تسجيل اعمال الملك اليومية ، قال :

« حفظ الحكومة تاريخها شيء مستحسن بل هو ضروري لكل طبقة من طبقة الاجتماعية وان كان اقتناء اثره في الزمن القديم ممكناً ولكل اغراضه العليا لم أعرف الا في هذا العهد . فجلالة الملك قد عين خمسة عشر كاتباً من ذوي النشاط والخبرة والجلاد [2] يقوم اثنان منهم بالواجب اليومي بالدور حيث يأتي دور كل منهم بعد خمسة عشر يوماً [3] واختار بعض الآخرين يصلحون كالاحتياطي يستخدم كل منهم ليوم واحد وذلك اذا لم يأت احد من الخمسة عشر نمارض هام قام احد الاحتياطي مقامه في ذلك اليوم وسماه « كوتن » أي الزائد عن العدد

« واما واجبهم فهو ان يكتبوا اوامر جلالة الملك واعماله وما يقدم الى جلالته رؤساء المصالح من التقارير ، وما يأكل جلالته وما يشرب ، والوقت الذي ينام فيه ، ويستيقظ ، والآداب المرعية في الديوان الملكي ، والوقت الذي يصرف جلالته في حرمه ، وتشريفه الحفلات الخاصة والعامة ، وسليقة اولائم للصيد والقنص وما يصطاد جلالته من الحيوانات ، وسيره ووقوفه ،

---

[1] آئين اكبري جلد ١ في صفحة ٢٥٨ [2] أي من لا يكلون ولا يملون [3] يكون الترتيب هكذا : يشتغل في اليوم الاول والثاني والثالث والرابع والخامس ، وفي اليوم السادس الكاتب الثاني والسادس ، وفي اليوم السابع الكاتب الثالث والرابع وهكذا دواليك .

واعماله كقائد روحاني للامة ، والعهود والأيمان التي تحلف لجلالته وملاحظة جلالته فيها ، والكتب التي تقرأ لجلالته ، والصدقات التي يتصدق جلالته بها والعطايا التي يعطيها ، والعروض التي يكلف جلالته نفسه بقيامها يوميًا وشهريًا[1] واختيار جلالته الرجال للمناصب وفرق الجيش وتعيين جلالته الرواتب وجاكيرات[2] وجاكيرات سيورغان[3] وهبات جلالته النقدية ، وتزويد الخزائن وتنقيصها ، وعقد جلالته المعاهدات والبيوع ، والنذور المقدمة الى جلالته واصدار مراسيمه والأوراق التي يوقعها جلالته ، ووصول التقارير الى جلالته ، وحضور ندماء جلالته وذهابهم ، وتعيين المواعيد لتحظوة بجلالته ، وتفقد جلالته حرسه الخاص ، واشراف جلالته على الحروب والصلح ومعاهدات الصلح ووفاة الرجال المشهورين ، ومشاهدة جلالته لمراك الحيوانات والمراهنة عليها ، ووفاة خيول جلالته ، وتنفيذ عقوبات الاعدام وعفو جلالته ، واحوال الاحتفالات العامة مثل الزواج والولادة . واحوال لعب « چوكان » و« چوپر » و« ترد » و« شطرنج » وكوتشينه وغيرها ، وأحوال الحوادث الغير الاعتيادية ، ومحصولات السنة والتقارير عن الحوادث في البلاد »[4]

كان يصحح سجل يومية الملك هذا أحد رجال البلاط ثم يقدمه الى الملك فاذا وافقه الملك وقّع عليه مقدمه الى الملك و « مير عرض » اي تشريفاتي الملك و « رواجي » اي حاجب الملك . وحينئذ كان يسمى هذا السجل « يادداشت » اي مذكرة . ثم كانت هذه المذكرة تلخّص ويرفع عن خلاصتها «وقائع نويس» في البلاط و «رساله دار» اي قائد بلوك الحرس و « مير عرض » اي تشريفاتي الملك ، و « داروغه » اي مدير الخاصة الملكية . فيسمى حينئذ « تعليقه » وهذه « التعليقه » كان وزراء الدولة يوقّعونها ويختمونها

تقدمت الادارة بعد جلال الدين أكبر في عهد خلفائه الذين لم تكلهم خطتها وتبلغهم عقلتها فسددوا خللها وأصلحوا فاسدها حيناً بعد حين . فنجد مثلاً في « تزك جهانكيري » أي مذكرات الملك نور الدين جهانكير[5] أنهُ خاص شقوتها وألم فوتها وكذلك من تبعه من ورثة العرش وولاة الأمر حتى أصبحت في عهد الملك محي الدين عالمكير أورنك زيب[6] منتظمة الشمل ومستحصنة الحبل ليست بمكان سحيق من أمثالها في العصر الحاضر

---

(١) الفارة ان الصلوات الخمس وصيام رمضان . (٢) وهي اقطاع الاراضي التي كانت تخصص من قبل الحكومة لمن تحكومة جزاء عن جهاد او خدمات اخرى ولا يزال هذا الطريق موجوداً في الهند وفي الاخص في الامارات الاسلامية مثل حيدر آباد وبهوپال . (٣) اقطاع الاراضي التي كانت تخصص لاعمال خيرية خاصة من جهة لصرف ايراداتها . (٤) آين أكبري مجلد ثاني صفحة ٢٥٩ . (٥) تولى الامر من سنة ١٦٠٥ الى ١٦٢٨ ميلادية . (٦) تولى الامر من سنة ١٦٥٩ الى ١٧٠٦ ميلادية . هذا آخر ملوك بيت تيمور الاتراك الذين تولوا امر الهند فبدأت بوادر انحطاط الدولة تظهر في عهدهم حتى انتزعت في عهد آخر الملوك « بهادر شاه » منها

رحلة في الفضاء

من الارض الى المريخ

من أدباء فرنسا المشهورين في القرن الماضي جول ڤرن . وقد كانت المزية التي اتصفت بها رواياتهُ اخيان العلمي المتوثب . فكان يبني على بعض حقائق العلم المعروفة في عصره، صوراً لعجائب علمية، لا سند لها الا أخيان ولكن كثيراً مما تخيَّلهُ اصبح حقيقة واقعة. وليس هذا بالامر العجيب . فتاريخ العلم حافل بذكر المستحيلات التي تحقَّقت . قال العلماء مثلاً ان الامواج اللاسلكية لا تدور حول الارض فأثبت ماركوني بالتجربة أنها تدور حولها ثم استنبطت نظرية لتفسير ذلك . وقيل ان الطيران بآلة أثقل من الهواء مستحيل . فأثبت لنلي والاخوان رايط ومن تلاهم ان المستحيل ممكن تحقيقهُ . وفي كل يوم لنا شاهد ناطق على ذلك بما نسمعهُ في جونا من هدير المحركات منطلقة في الجوّ، كالجنّ

من الكتب المشهورة التي وضعها جول ڤرن في اواخر القرن الماضي كتاب عنوانهُ « من الارض الى القمر » جعل فيه مطية الراحلين قنبلةً تنطلق من مدفع ضخم قاعدتهُ مدفونة في الارض وفوَّهتهُ متجهة الى السماء . فهل تمكنا في هذا العهد من تحقيق حلم جول ڤرن هذا ؟

كلاَّ . ولكن العلماء في اثناء بحثهم عن الوسائل التي قد تتيح لهم هذا السفر في الفضاء ، الى القمر بل الى ما وراء القمر، استخرجوا حقائق جديرة بالنظر ، فيها عما يبعث على الدهشة ، وما يحرِّك الخيال معاً . ولقد بلغ من تقدمهم في دراسة هذا الموضوع أن نشأ علم جديد ، لفظهُ الأعجمي « استرونكس » ومعناهُ « الملاحة الجوية »

فلننظر في العقبة الاولى الكبيرة التي يجب ان نتغلَّب عليها ، حتى نتمكن من الانطلاق في الفضاء خارج جوّ الارض . هذه العقبة هي جاذبية الارض كما تدعو في ثقل الاشياء على سطحها . فلكي نفلت من جاذبية الارض ، يجب ان ننطلق بقوة و سرعة معاً، تتغلبان على ثقلنا وثقل الآلة التي نستقلها . ونحن نعلم انه اذا أخذنا كرة ورميناها في الفضاء ، فانها تذهب في الجو مسافة تثقل وقوة رميها ثم تعود الى الارض . فهي تتحدى بعض الجاذبية في أثناء انطلاقها هنيهة ، ثم تضعف جاذبية تحدِّيها فتذعن لها وتعود الى الارض

فهل لدينا آلة قوية نستطيع أن نطلقها بقوة كافية وبسرعة عظيمة فتتمكن بقوتها وسرعتها من الانفلات من جو الارض ومن جذبها فتخرج الى الفضاء بين السيارات أولاً ثم بين النجوم

هذا هو السؤال . والردُّ الاول عليه من الناحية النظرية انهُ ليس ثمة مانع يمنع ذلك. فنحن اذا طبقنا أحد نواميس نيوتن عرفنا أننا اذا استطعنا ان ندفع كرة مثلاً بسرعة سبعة أميال في الثانية ، تمكَّنا من التغلب على جاذبية الارض . وأسرع رصاصة لا تزيد سرعة انطلاقها على نصف ميل في الثانية او أكثر قليلاً . أي ان الجهاز الذي نستقلهُ للانفلات من جذب الأرض يجب ان تزيد سرعتهُ على سرعة الرصاصة من اثني عشر ضعفاً الى أربعة عشر ضعفاً

فهل في الامكان بلوغ هذه السرعة بوسيلة من الوسائل ؟

أطلق بندقية تشعر بمؤخرها يصدم كتفك عند انطلاقها . وكذلك في الصاروخ المستعمل في الحفلات النارية الكبيرة يطلق الغازمن مؤخر الصاروخ عند انفجاره فيندفع الصاروخ الى الأمام او الى فوق وفقاً لاتجاه رأسه . فالمهندس يدعو الصاروخ « آلة ردّ فعل » . والعالم الطبيعي يعلم بأن مبدأ الصاروخ هو المبدأ الوحيد لصنع جهاز يصلح لرياضة الفضاء

وقد يظنُّ لأول وهلة ان مبدأ استعمال الصاروخ للملاحة الفضاء اكتشاف علمي جديد ، ولكن جول فرن نفسهُ قال ان ما أوحى اليهِ بما ذكر في كتابه ، رواية وضعها أحد الأدباء ووصف فيها سفينة تسير بفعل الصواريخ من كندا الجديدة الى القمر . وليس بالغريب ان يكون نيوتن ، صاحب ذلك العقل العلمي الجبار، قد أشار الى امكان استعمال الصاروخ في ملاحة الفضاء او رياضته . وفي عصرنا نجد غير كاتب واحد من كتَّاب الروايات ، خاض وحاب الجو بواسطة الصواريخ ، معتمداً في ذلك على خياله . ثم نشأ علم « الملاحة الجوية » الذي أشرنا اليهِ ، وفي مختلف البلدان الآن طوائف من المهندسين والعلماء يعنون بهذا البحث عناية عملية

ولعلَّ في مقدمة هؤلاء عالماً أميركيًّا يدعى جودرد، وهو أستاذ الطبيعة في جامعة كلارك الأميركية . وقد تدرَّج الاستاذ جودرد الى بحث هذا الموضوع من عنايته بموضوعات علمية أخرى غرضها دراسة حالات الجوّ في طبقاته العليا . فاستعمل أولاً بروداً تجاريًّا خالياً من الدخان ، فبلغت سرعة السفينة عند انطلاقها ٨ آلاف قدم في الثانية . ثم زاد هذه السرعة الى ١٢ ألف قدم وهي تفوق سرعة الرصاصة نحو أربعة أضعاف . ولكنها مع ذلك لا تكفي للانفلات من جذب الارض ولذلك جعل يبحث عن مادة متفجرة أخرى غير البارود . فاستعمل الغازات الناتجة لهذا الغرض ، فهو يعتقد ان غازاً مركباً من إيدروجين وأوكسجين يحتوي على إمكانه على القوة الكافية عند تفجيره لاطلاق السفينة او القذيفة بالسرعة اللازمة

هذا هو الأساس العلمي لهذه الرحلة الخالقة . فلننتقل من العلم المحض الى العلم مفروناً بالخيال . ولنفرض أننا صنعنا السفينة ، متصفة بالصفات اللازمة لرحلتها هذه وهي الاستقرار

بحيث يبقى مقدمها مسدداً الى الجهة التي بقيها ، والراحة بحيث يكون راكب هذه السفينة في جوّ كالجوّ الذي يحيط به على الأرض من حيث الضغط والتنفس والتدفئة والتبريد

لنعرض الى كل هذا قدر ما وأنا بدأنا الرحلة الى المريخ ، وهو أحد الكواكب السيارة التي تدور حول الشمس ويبعد عنا عندما يكون على أقرب منا أكثر من ٣٠ مليون ميل

هنا يقترح أحد الباحثين الالمان أن نجعل القمر محطتنا الأولى . فنزن عليه سدّ الانفلات من جذب الأرض لنتناول منه المادة اللازمة لسفينة في مرحلتها الثانية . وتكون هذه المحطة ، على مثال محطات البنزين التي تنشئها الشركات المختلفة عندنا ، أو محطات الفحم في الثغور التجارية المختلفة . فبعد أن نجدّد سفينتنا وقودها في محطة القمر ، نستأنف سيرها الى المريخ . ولكنها لا يجب أن تطير من القمر بسرعة ستة أميال في الثانية ، كما رأينا من سطح الارض ، لأن قوة الجذب على سطح القمر أقلّ جداً من قوة الجذب على سطح الارض . فهو أصغر كتلة وإذن فهو أقلّ جذباً

ولكن هناك صعوبة أخرى تتعلّق بالقمر . وهي ان القمر يبقى أحد وجهيه دائماً متجهاً الى الشمس والآخر يبقى دائماً مشيحاً عنها ، وإذن فأحد وجهيه حارّ لانصباب الحرارة عليه والآخر بارد جداً ، لاحتجاب أشعة الشمس عنه . ولذلك يقترح المهندسون — مهندسو الملاحة الجوية — ان تصنع ملابس خاصة ، تقينا عند الوصول الى القمر ، الحرّ الشديد او البرد الشديد

فاذا تغلّب هؤلاء الباحثون على هذه العقبات وما كان من قبيلها ، صار في الامكان ان نذهب في رحلة الى القمر ، في الوقت الذي تستغرقه الرحلة من القاهرة الى بيروت

ثم هناك صعوبة أخرى . نحن على سطح القمر ونريد السفر الى المريخ . فهل يكفي ان نسدّد مقدام السفينة الى المريخ ، فنطلق في الفضاء حتى نصل اليه ؟ كلا . ولماذا ؟ لأن المريخ شأنه شأن الكواكب السيارة المختلفة ، سائر في فلكه بسرعة عظيمة . والمريخ يبعد عنا عندما يكون على أقرب منا ٣٠ مليون ميل . فاذا سرنا اليه بسرعة ١٠ أميال في الثانية استغرقت الرحلة اليه نحو شهر او أكثر . ولكنه يكون قد انتقل في خلال هذا الشهر من موقعه الذي كان فيه عندما بدأنا الرحلة الى موقع آخر يبعد عن الأول كثيراً

وإذن فسفر السفينة وتسديدها يجب أن يكونا خاضعين لحسابات الرياضيين والفلكيين الدقيقة . وفي هذه لا بدّ من أن نراعي الفدان الذي يراعيه الصياد عندما يسدّد بندقيته الى طائر ما . فهو لا يسددها تماماً الى عصفور طائر من الى نقطة يعرف بحسب تجربته وخبرته ان العصفور بالغها فاذا بلغها كان الرش قد بلغها كذلك فيصاب العصفور في المقتل

وكذلك في حساب سفينتنا والمريخ . فالاجسام السماوية تسير في خطوط منحنية ، معروفة

للفضاء من ثقل الجرم وسرعته ، ولذلك يرسم للسفينة السائرة الى المريخ ، نهج معين تسير فيه ، حتى تلتقي بالمريخ عند نقطة معينة فتنزل على سطحه . وقد حسب المهندسان الألمانيان هومان وقاينه (وقد قتل أحدهما في سنة ١٩٣١ في تجربة سيارة تنطلق بمبدأ الصاروخ) جميع الخطوط التي يمكن أن تؤدي الى المريخ، ووضع جدولاً بها وبيّن اخصرها وأقصرها

لقد انطلقت السفينة من الأرض ، وفيها من الوسائل ما يفي الركاب غوائل السرعة ويكفل لهم جوًّا طبيعيًّا يتنفسون فيه، ووصلت الى القمر ، فحطت عليه ثم انطلقت منه الى المريخ فوصلته كذلك . ولكن المريخ لهُ جوٌّ . والبحث الفلكي أثبت أن في هذا الجو عنصر الأوكسجين عامل الاحتراق . فاذا تقبل السفينة وقد وصلت الى المريخ . كيف تنزل على سطحه؟ انها اذا اخترقت جوه بسرعتها العظيمة ، حدث الاحتكاك والفرك ، فترتفع الحرارة فيساعد الأوكسجين على الاحتراق، على نحو ما يحدث للشهب التي تخترق جو الأرض . فهي على ما يعلم القراء أجسام صغيرة غير مضيئة ، فاذا دخلت جوَّ الأرض بلغ من احتكاكها بالهواء ما يرفع حرارتها ، فتحترق لوجود الأوكسجين فتراها مضيئة ، في خطوط من نور

ومع تقدم العلماء بحل لكل مشكلة من هذه المشكلات العظيمة التي تعترضهم في مسألة الملاحة الجوية ، لا يزالون حائرين أمام هذه المشكلة . ولكن اذا كانت السفينة لا تستطيع أن تنزل على سطح المريخ خشية الاحتراق ، فكيف تستطيع أن تعود الى الأرض، وتخترق جوها وتبلغ سطحها بغير أن تحترق ؟ في الاجابة عن هذين السؤالين ، أو في السعي الى حل هذه المعضلة ، من ناحية المريخ ومن ناحية الأرض، نجدنا أمام مقترحات مختلفة . فقد اقترح بعضهم استعمال فرامل تخفض سرعة السفينة . وقال آخرون باستعمال مظلات واقية أو هابطات (باراشوت). ولكن الاعتراض على الفرامل انها مهما تبلغ قوتها لا تستطيع أن تكبح جماح قذيفة منطلقة بسرعة ستة أميال في الثانية أو عشرة أميال . والمظلات لا تقل ضعفاً في ابطاء سرعة السفينة عن الفرامل والبعض الآخر يقول باستعمال طيارات من قبيل السابحات في الهواء التي تسير بغير محرّك ، تنطوي وتوضع في السفينة فاذا دخلت السفينة جوَّ الأرض أخذ كلّ مسافر طيارة منها وتقلد انسوباً يجهزهُ بالاوكسجين في طبقات الجوّ العليا حيث يفر الاوكسجين عن الحاجة، ثم يدخن طيارتهُ ، ويسلم نفسهُ للقدر ، في عودته من رحلة الى المريخ

في هذا الحديث مزيج من الحقيقة والخيال . واذا كانت الرحلة في الفضاء متعذرة الآن ، فقد لا تكون متعذرة غداً ، ومع ذلك اذا فرضنا انها ستبقى متعذرة ، فان البحث العلمي فيها سيفضي حتماً الى اكتشافات عظيمة الشأن . وهذا تاريخ العلم حافل بالأمثلة على ما جناهُ العلم من البحث عن أشياء عدّت مستحيلة

غزوة بريطانيا

ترجمة شاهد تاريخي

نفيل تشمبرلين

١٨١٨ — ١٩٤٠

الحس العملي

في نفس الانكليزي

للسر مايلز لامسون السفير البريطاني

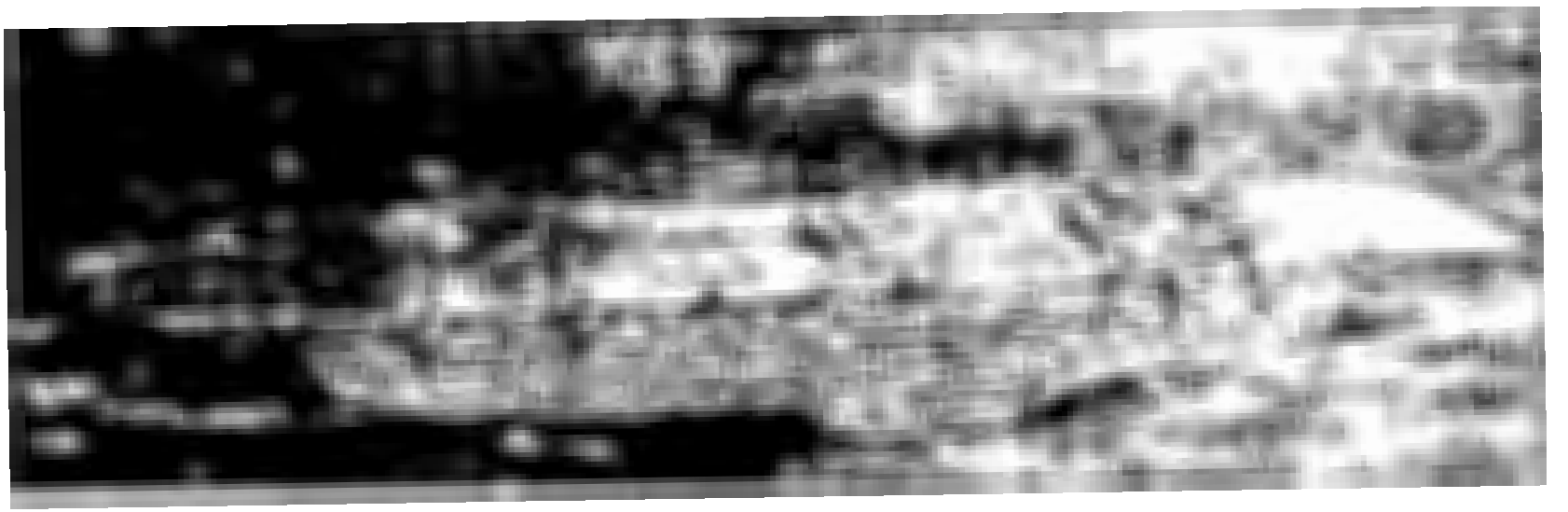

مقطع لحاملة الطائرات « آرك رويال » يبين سطحها وطبقاتها المختلفة التي تحت السطح حيث تحفظ الطائرات

غزوة بريطانيا

تعريب شاهر [illegible]

— ١ —

نحن في سنة ١٥٨٨ ، كان الأسبانيون قد هزموا [illegible] في البحر المتوسط في معركة ليبانتو البحرية المشهورة سنة ١٥٧١ . وكان العلم الأسباني في تلك السنة يخفق فوق أسبانيا والبرتوغال ومملكتي نابولي وصقلية ودوقية ميلانو ومملكة هولندا في أوربا ، وفوق تونس وبوهران وجزائر الرأس الأخضر وجزائر كناري في أفريقية وفوق جزائر الفيبين وغيرها في بحار الشرق الأقصى . وكانت بلدان أميركية كثيرة في أميركا المتوسطة وأميركا الجنوبية تعترف بزعامة أسبانيا العالمية في السياسة والحرب والثقافة . وكان ذهب المكسيك وبيرو وكنوز الهند تملأ خزائنها فتمكنها من الاحتفاظ بجيش كبير قوي بقيادة أمير فوق عصره دوق بارما . وكان في المانيا وايطاليا وبولونيا حركة معاكسة للاصلاح الديني ، المعروف بالبروتستنتي ، وكانت أسبانيا زعيمة الدول الكاثوليكية حينئذٍ ، فكان أقطاب تلك الحركة الدينية المعاكسة ، أصدقاء لها او أتباعاً لحكم العقيدة . وكانت هولندا التي قاومت الاحتلال الأسباني مقاومة عنيفة ، قد أخذت عزيمتها تضعف في وجه الجيش الأسباني المحتل وقيادته دوق بارما وبراعته

في تلك السنة لم يكن يقف بين أسبانيا والسيادة البحرية غير انكلترا — انكلترا الملكة اليزابث ، انكلترا شكسبير وبيكون ودرايك

وانكلترا في تلك السنة لم تكن الدولة التي يخشى بأسها الخطر صولتها . فانكلترا كانت ناقة لنزاع على التاج بين أنصار ملكة اسكتلندا وملكة انكلترا . وأرلندا كانت مضطربة مشرفة على التمرد او هي متمردة حقيقة في بعض مناطقها . ولم يكن لها [illegible] تستمد منها القوة والمون . ولم يكن لها سيادة بحرية تعترف بها . فماذا لا تقهر انكلترا وبدك هذا العائل القائم بين الملك فيليب الثاني ملك أسبانيا والسيادة العالمية ؟

وكان عند الملك فيليب الثاني ما يحمله على الاعتقاد بأن جهداً عسكرياً كبيراً تؤيده جميع الموارد العسكرية والمالية التي رهن يده ، يمكنه من اخضاع تلك الجزيرة . ورسخ في ذهنه سفائن أسطوله البحري وزهرة مشاته تكوّن قوة لا تقهر . فما عيت بعاهل على أمره . وسقطت اليزابث ، إلهة هنري الثامن التي فصل انكلترا عن الكنيسة الكاثوليكية . ثم يملك فيليب الثاني ، بسيادة دينية عامة ، في ظل سيادة دينية عالمية ، هو زعيمها الديني

تلك كانت البواعث الأصلية . وهي لا تختلف في جوهرها عن البواعث التي حملت نابليون

مستهل القرن التاسع عشر ، وتحمل هتلر الآن ، على الرغبة في إخضاع بريطانيا ، وان اختلفت الغوائب التي تتفرع فيها هذه النزعات وتباينت أساليب الكفاح . فالسيادة العالمية كانت الهدف البعيد في الحالات الثلاث ، والبحار حائل دون تحقيقها

ومضت مئة وثلاثون عاماً قام في أثنائها نابليون على قدم وساق لاعداد حملة تغزو تلك الجزيرة العنيدة . وكان هذا التأهب قائماً في وقت واحد في اسبانيا والبرتغال ، وقيامه في جميع ثغور السواحل الشمالية الغربية الخاضعة لاسبانيا ، الممتدة من سواحل شبه جزيرة جتلند الى نهاية ما يعرف الآن بسواحل البلجيك . وأذيع أن هذه الحملة تعد لتزو في آسيا رغبةً في التخفي والتضليل ، ولكن الانكليز لم يخدعوا عما زوي وذاع

وكان دوق بارما في هولندا يبذل غاية المستطاع . كما فعل بولون بعده ، وكما يفعل الفوهرر رأفوانهُ الآن ، لاعداد اساطيل من السفن لنقل جيش كبير مدرَّب من مرافىء السواحل الهولندية عبر مضيق المانش الذي يفصل تلك السواحل عن سواحل انكلترا . ومن أغرب ما يستوقف النظر ان الأسماء التي يتردد ذكرها في هذه الأيام — اوستند ودنكيرك وبولوني وكاليه وغيرها — هي هي التي تردد ذكرها في أعداد الحملتين السابقتين

ولم يكن للانكليز حينئذٍ أعوان وحلفاء الا محالفة مضطربة مع ملك فرنسي متردد . ولكن بحارة هولندا كانوا في جانب الانكليز . امس واليوم متفقان في ذلك . وكان الاسطول البريطاني يشتمل على ست وثمانين سفينة من جميع الأصناف . فلما لاح الخطر المقترب على الأفق ، عزَّز هذا الاسطول بتسليح السفن التجارية — كما عزَّز اسطولهم بها في بدء هذه الحرب — فبلغ الاسطول ١٩١ سفينة كان مجموع تفريغها الجميعاً ٣١٩٨٥ طناً . أي اقل من تفريغ باخرة كبيرة واحدة من بواخر يومنا هذا . وكان عدد رجاله ١٧٤٧٢ انضم اليهم نحو ستين سفينة صغيرة من سفن البحارة الهولنديين الذين حاربوا في جانب بريطانيا من ٣٥٢ سنة كما يحارب البحارة الهولنديون اليوم لانقاذ وطنهم من وطأة الطاغية . بيد ان هذا ان الارمادا الاسبانية وكانت تعرف بوصف الارمادا التي لا تقهر [illegible] كان تونها ١٣٠ سفينة مجموع تفريغها ٥٧٨٦٠ طناً وكان رجالها ٨٠٥٠ من البحارة و١٩٨٧ من الجنود ، ٢٨٨ من المجذفين وعدتها ٢٩٣٣٥

كانت سفن الاسبانيين أكبر وأقوى ، ومدفعتها أسلحة حقيقة ، فكانت تصلح للاشتباك والالتحام بين السفن . كانت سفن الانكليز أصغر ولكن مدافعها أخف وتحريكها أيسر ورجالها يعرفون البحار وتياراتها والرياح ومهابها معرفة حق اليقين

وأقلعت الأرمادا الاسبانية من مصب نهر تاج في البرتغال في ٢٠ مايو سنة ١٥٨٨ . وعددها

الأول أن تبسط سيطرتها على بحر المانش ، وهدفها الثاني ، أن تتصل بعد ذلك بجيش دوق بارما في هولندا وما أعده من السفن في دنكيرك واوستند لنقل الحملة الغازية الى سواحل انكلترا

ليس بهمنا من باقي القصة ، أن نفصل أدوار المعركة التي دارت بين الأرمادا وبين الأسطول الانكليزي ولكن حسبنا ان نقول أن الأميرال البريطاني هورد — وكان دراييك البطل البحري المشهور أحد ضباطه الكبار — لم يكد يلمح السفن الاسبانية متجهة الى كاليه ودنكيرك ، متهادية في بحر المانش ، تدفعها ريح جنوبية غربية ، حتى هجم على مؤخرتها . ومع أن السفن الانكليزية كانت أصغر من السفن الاسبانية ، الا أن مدافعها كانت أضخم وأقوى وتحريكها أيسر وأسهل فاستطاع الانكليز باتجاه الريح وحركة الماء ، وتولوا زمام ادارة المعركة من بدئها ، فكانوا يختارون المواقف التي تلائمهم لمواجهة سفن أعدائهم ، وأبوا أن يشتبكوا مع السفن الاسبانية ويلتحموا بها ، لتفوق الاسبانيين في عدد الرجال ، ولأن جدران السفن الاسبانية كانت أعلى من جدران السفن الانكليزية ، فالصعود اليها أصعب على الانكليز ، والنزول الى السفن الانكليزية أيسر على الاسبانيين . ولذلك فضل الانكليز مهاجمة السفن الاسبانية مفردة أو في فصائل صغيرة ففككوا بها تكتلاً ذريعاً وأسروا سفينة الأميرال بعد ما عطلوها

ودامت هذه المرحلة من المعركة سبعة أيام ، لجأت بعدها سفن الأرمادا الى كاليه ، وكان جانب منها مهشماً ولكنها لم تكن قد قهرت بعد . وكان الهولنديون في بلادهم قد شغلوا دوق بارما وجيوشه فلم تقم الحملة المعدة للغزو من مرافئها

وجدد الانكليز الهجوم على السفن اللاجئة الى كاليه ، فوجهوا اليها ثماني سفن نارية ، فاضطرب الأسبانيون ورفعوا المراسي وخرجوا من المرفأ وتجمعوا بعد جهد أمام جرافلين على الساحل فأمر الأميرال البريطاني أسطوله كله بالهجوم ، فأغرق من السفن الأسبانية ما أغرق وقسر الباقي على الخروج الى البحر ، فخرج واجتاز دنكيرك بغير ان يلت عندها . وكانت دنكيرك آخر موقع متفق عليه للاجتماع بالحملة التي أعدها دوق بارما . ومضت السفن الأسبانية شمالاً في البحر الشمالي ، والانكليز يتعقبونها ، فلما بلغت سواحل اسكتلندا عطفت غرباً فدمرتها العواصف على تلك السواحل الصخرية الجافية

— ٢ —

هذا هو المشهد التاريخي الأول . أما المشهد الثاني فهو مشهد الحملة النابوليونية

كان في سنة ١٨٠٥ وفي شهر أغسطس . ونابوليون في معسكره في بولون المطلة على بحر المانش ، يروح ويجيء برماً يلوح عليه أن صبره أخذ ينفد ، ثم يلتفت حيناً بعد حين الى وزير بحريته الأميرال دكريه ويقول له أين فيلنوف ؟

كان نابوليون قد أنشأ الأمبراطورية الأولى ، وضم تحت رديه فيما فرنسا القديمة وفرنسا

الجديدة ، أي أنهُ جمع بين المبادىء الثورية الجديدة ، والمبادىء الملكية القديمة ، وكان هناك ارتياحٌ عام ، لأن الدلائل كانت تدل على ان الرخاء آخذ يعود الى بلاد فرنسة والثورة وأضعتها الحروب ، بعدما أنشئت فيها حكومة مستقرة ، وستتبعُ فيها انظام عام

ولكن نبوليون كان يدرك أكثر مما يدرك الشعب ، ان الأمر لا يستتب للامبراطورية ، وان النظام لا يستقر في البلدان التي فتحها وأخضعها بحد السيف ، إلاَّ اذا قهر قوة بريطانيا ، لم يفتر ذلك وهو مكبٌّ على الاصلاح الداخلي ، ولذلك كان فكره أبداً متجهاً شطر البحر ، على سواحل فرنسة الشمالية . وكان يعلم أنهُ لا يستطيع ان يقهر بريطانيا الا اذا ناجزها القتال في البحر حيث سر قوتها . ولذلك قال قوله المشهور متمنياً أن يباح لهُ مضيق دوفر وبحر المانش مدى أربع وعشرين ساعة فقط

كانت الدول الاوربية التي لم يخضعها نبيوليون حلفاً ثالثاً ضده . وكان مقتنعاً بأنهُ يستطيع أن يهزم جيش هذا الحلف . ولكن انتصاره عليه لا يفيده . أكثر مما أفقده إنتصاراته السابقة ما دام الأسطول البريطاني سليماً ، يشدد عليه الحصار ، ولا يستطيع أن يفكه الحصار من البر. والغريب ان كلاً من نبوليون وهنري أعلنا حصر بريطانيا من بر القارة وأذاعا إعلانهما من مدينة واحدة هي برلين . وكان مصير الأول الى الحبوط وكذلك سيكون مصير الثاني لأن البحر لا يحصر من البر ولذلك عني نبوليون بإعداد أسطول بحري جديد قوي ، وكذلك بإعداد حملة كبيرة لغزو بريطانيا . كانت الحملة التي أعدَّها تشمل ١٣٢ ألفاً من خيرة محاربيه وأشدهم مراساً منهم ١٠٠ ألف من المشاة و١٩ ألفاً من الفرسان و١٣ ألفاً من المدفعية . وكانت السفن المعدة لنقل هذه الحملة ومعداتها متأهبة وقاعدتهم بولون وثلاثة ثغور أخرى مجاورة

وما يبقى الاَّ أن يتجه الأسطول الفرنسي بقيادة الأميرال فيلنوف الى برست لمواجهة الأسطول البريطاني بقيادة نلسن أو من ينوبه من أمراء الأسطول ليشغل الأسطول البريطاني مدى أربع وعشرين ساعة حتى الأقل تختار في خلالها الحملة النبوليونية فرصة الفاصلة بين سواحل فرنسا وسواحل بريطانيا . وهنالك يصبح القتال من النوع الذي تتفوق فيه نبوليون

ولكن فيلنوف لم يجتز برست بل ذهب الى قادش في جنوب ذلك لأن الأميرال بركلي قائد بحرية أسطوله على لا تحام بالأسطول البريطاني الذي كان في برست وقد حاول الأسطول الاسباني الذي كان به نبوليون وهو لا يريد أن يعرّض الأسطول الذي بقيادته لهذه الخطر ذهب الاصطدام . وكان هذا عرض نبوليون . فنبوليون لم يكن يطلب منهُ نصراً بحرياً ، وانما كان يطلب منه تشغيل الأسطول البريطاني . ولو مضى في هذه المعركة لاصطدم الفرنسي بنبوليون في بولون . ومهما يكن من رجحان الاحتمال ، حتى لو فرضنا شهر نلسن من

الانتهاء ، وبدأ جو الخريف برياحه الهوج تضرب سطح الماء فتجعل انتقال الحملة عملاً محفوفاً بالخطر . وذرّ قرن الثورة عليه في بعض بلدان أوربا فاستدبر القانش وفي قلبه حسرة ، وواجه خصومه على بر القارة فأحرز انتصارات عسكرية كبيرة ولكنها لم تغنه كما كان يعلم . وكذلك قدّر لحملة نبوليون على بريطانيا ان لا تقوم . بل قدّر ان يكون الفصل التالي من النزاع امام الطرف الآخر حيث فاز نلسن بنصر حاسم على الاساطيل الفرنسية والاسبانية . فكان ذلك بدء النهاية ، مع ان النهاية لم تأت الاّ في واترلو بعد نحو عشر سنوات

— ٣ —

أما المشهد الثالث فني البقعة نفسها على سواحل مضيق دوفر وبحر المانش ، ولكن في سنة ١٩٤٠ بدلاً من ١٥٨٨ أو ١٨٠٥ . لقد أحرز هتلر كما أحرز نبوليون انتصارات عسكرية كبيرة حاسمة على البر الاوروبي . ولكنهُ مدرك كما ادرك فيليب الثاني ونبوليون من قبل ، ان دون السيادة العالمية ، واستقرار النظام في البلدان التي أخضعها ، تلك الحزائر التي يغطيها شعب باسل لا يعرف الخزع يسود البحار وهو في طريقه الى سيادة الجو . وها هو ذا المارشال جورنج واقف حيث وقف دوق بارما ونبوليون من قبل . السفن متجمعة في الثغور على طول الساحل من همبورج الى الحدود الاسبانية . وتضاف اليها ثغور نروج . ووراء هذا الحشد من السفن عشرات الالوف من الجند ينتظرون الامر بالسير

ولكن هذه الحملة ، المنظمة بدقة واحكام ، بين امرين على ما نعتقد ، إما ان يكون مصيرها مصير الارمادا الاسبانية ، واما ان لا تقوم مطلقاً كحملة نبوليون . ذلك بأن الأسطول البريطاني المتفوق واقف لها بالمرصاد . وقاذفات السلاح الجوي البريطاني ، توالها قذفاً قبل نهار ، تغرق السفن وتدمر الارصفة وتشعل النيران في مخازن العتاد ومستودعات البترول . وجميع الخبراء الحربيين يجمعون ، من روسيا الى الولايات المتحدة الاميركية ، على أن لا أمل لهذه الحملة في النجاح الاّ اذا انتزع السلاح الجوي الالماني لواء سيادة الجو من سلاح الطيران البريطاني . فاذا لم يفعل فالحملة مقضي عليها بالحبوط . وليس في المعركة الجوية الدائرة الآن دليل واحد على ان فوز الالمانيين بهذه السيادة الجوية قريب او محتمل ، فخسارتهم في الطائرات ورجال الطيران المدربين فادحة ، وضربهم المدن والمكتشف والمتاجف ومخازن البترول لا يلبثهم مزية حربية تذكر . فالارهاب لا يكسبهم هذه المعركة . وقد بدأ الآن — وهذا الفصل من حديث أذيع من محطة الاذاعة للحكومة المصرية في ١٩ سبتمبر — جو الخريف المضطرب يحل على تلك القناع ، ورياح هوج وبحر عاتية متلاطمة الأمواج وغيم متلبد وضباب كثيف . فاذا غامروا فمصير الارمادا أمامهم ، واذا امتنعوا فقد فاتت الفرصة والمرجح الذي في مرتبة اليقين انها لا تعود

نفيل تشمبرلن

١٨٦٩ — ١٩٤٠

يذل غاية ما يستطيعه انسان من جهد، ويتعرض لأشد ما يتعرض له سياسي من نقد، لكي يصون سلام العالم الخارجي أمنه وحيطت سمعته، وانهكت القوى التي نظمت له، وتوالى الاعتداء، وكان لا مفر من حرب يعلم انها مدمرة، ولكنه أقبل عليها يعزم الصلب الذي عرف به في جميع مراحل حياته، ووفى على ختامها وهو يتمنى ان تتاح له فسحة من العيش ليرى هزيمة الشر، وشر القوة الغاشمة والحنث بالعهود والنظم والاستبداد والاضطهاد، على ما قال في بيانه الموجه الى الأمة البريطانية صباح الأحد ٣ سبتمبر سنة ١٩٣٩ ثم في بيانه في مجلس النواب ظهر اليوم نفسه. ولكن القدر اراد له غير ذلك فصح ما حكي هو ان يصح، إذ شبه نفسه في خطبة خطبها في ربيع سنة ١٩٣٩ بالوزير «بت» الصغير فقال انه كان مهتماً كالوزير «بت» بشؤون الاصلاح الداخلي ولكنه مضطر مثله الى الانصراف عنها الى شؤون السياسة الخارجية والحرب، وان حرى ألا يكون مصيره واحداً لان «بت» توفي قبل شهد ظفر بريطانيا في الحروب النابوليونية

كان جوزيف تشمبرلين والد نفيل من كبار رجال الاعمال في مدينة برمنغهام الانكليزية فلما خاض ميدان السياسة ظهر فيه على الاقران فما انصف به من الأهلية وناقب الرأي وادة المعارضة فتبأوا له في اواخر القرن الماضي بأنه بلغ أعلى مناصب الدولة — رآسة الوزارة — ولكنه قصر دونه. ولولا مسألة استقلال ارلند الداخلي ومعارضته فيه حلف غلادستون على انقلب زعيماً للاحرار ورئيساً للوزارة. ولولا دعوته الى الحماية التجارية والتفضيل الامبراطوري بعد ذلك حلف بلفور في زعامة المحافظين. وكاد قرران يحقق في كليهما ما عجز عن تحقيقه في نفسه مكره اوستن لذلك فوجهه الى مدرسة رجبي فالى جامعة كمبردج ثم الى مدرسة العلوم السياسية بباريس وبعدها الى المانيا. وانتخب اوستن عضواً في مجلس النواب وهو في التاسعة والعشرين من عمره وتقلب في مناصب الدولة الرفيعة وتقلد أعلاها ومنها وزارة المالية ووزارة الخارجية ولكن تمسك بأدب السياسة المتواضع عليه في انكلترا حتى بينه وبين مرآته في حدث لا محل لتفصيله هنا

وعهد جوزيف تشمبرلين الى ابنه الثاني نفيل في إدارة الاعمال في مدينة برمنغهام وهي التي جزائر بهاما حيث قضى سبع سنوات يخوض من برد الشتاء وهو في [illegible] الشتاء) حيث لا ينمو السيسال فأخفق وعاد الى انكلترا فتولى ادارة اعمال الأسرة في برمنغهام

ولكن القدر شاء أن يبلغ نفيل المنصب الذي صبا اليه والده وأعده له فعمله [illegible] يدخل ميدان السياسة الانكليزية الا وهو في الخمسين من عمره

عني وهو في برمنغهام بمسائل الاصلاح المحلية فانتخب عضواً في مجلسها البلدي ثم محافظاً للمدينة . فأصبح مساكن العمال ونظم شؤون الصحة العامة وأنشأ بنكاً للتوفير . وقد فعل ذلك على الرغم من ان اخوانه المحافظين أتهموهُ بالاشتراكية وهي تهمة كانت في ذلك الوقت كافية لتنفي من لم يكن مثلهُ صلب العزيمة عن المضي في الاصلاح . ودعي الى تقلد منصب في الحكومة في لندن سنة ١٩١٥ — ١٩١٦ فتقلده بضعة أشهر ثم تخلى عنهُ لان الوقت لم يكن ملائماً للسير فيه وفقاً لما يراه وعاد الى برمنغهام

وفي سنة ١٩١٨ رشح نفسه للنيابة ففاز بها وكان في الخمسين من عمره وترقى سريعاً فعين وزيراً للبريد فوزيراً للمالية فترة قصيرة ثم وزيراً للصحة سنة ١٩٢٤ . ولا يزال الرأي الانكليزي في الدوائر المطلعة مجمعاً على أنهُ أعظم وزير تقلد وزارة الصحة في بريطانيا . ذلك بأن خبرتهُ في منصب المحافظة لمدينة برمنغهام وعنايته بشؤون مساكن العمال والصحة العمومية فيها أهلتهُ لمعالجة المشكلات نفسها في نطاق أوسع . فقضى خمس سنوات يكافح في سبيل تحسين مساكن العمال وفاز باقرار «قانون تشمبرلن لبناء المنازل» وأشرف بمقتضاه على بناء مليون منزل جديد للعمال يدخلها نور الشمس ويتخللها الهواء النقي وتتوافر فيها أسباب النظافة والدفء . ومن المأثور عنهُ أنهُ قال : « لا بدَّ من إصلاح الحال قبل خروجي من هذه الوزارة » . ووجه عناية خاصة الى الأمهات النفساوات وخفض معدَّل الموت بينهنَّ لأن والدتهُ توفيت نفساء على أثر وضعه

فلما عصفت رياح الأزمة الاقتصادية العالمية ببريطانيا سنة ١٩٣١ وألف مكدونلد الوزارة القومية الأولى أختير نفيل تشمبرلن وزيراً للمالية وظل محتفظاً بهذا المنصب الى أن خلف المستر بولدوين رئيساً للوزارة في مايو سنة ١٩٣٧ على أثر تتويج الملك جورج السادس

في وزارة المالية تجلت أخلاقه . فهو حازم لا يعرف التردد ، منظم لا يرضى التراخي ولا الاضطراب ، متدين لا تغيب عنهُ الفاضلة ، صريح يأبى المداهنة ، محافظ في الشؤون المالية لا ينحرف الى المغامرة في تجربة الغير من المذاهب . كانت الدولة تواجه شبح الافلاس عندما تقلد وزارة المالية سنة ١٩٣١ فوضع يده على الدفة وسير السفينة في بحر متلاطم الأمواج الى بر السلامة والرخاء . وزان الميزانية بعد إضطراب ووفر المال فتتابع الاعمار بعد إزوائه في خزائن البنوك وانتعش الدولة عشرات الملايين بمقدم أكبر صفقة تحويل مالية في التاريخ إذ خفض الفائدة على الدين العمومي ومن لا يرض بهذا الخفض فليقدم سنداته وليأخذ ماله . فما انقضت سنة ١٩٣٧ حتى كانت بريطانيا على طريق الرخاء . هذه الاعمال رفعت من شأنه في مجلس الوزارة وعززت من خطوه . وبدا يلعب على ظن المتتبعين لمشاهد السياسة البريطانية انهُ الخلف المحتمل للمستر بولدوين بعد انتهاء حفلات التتويج في مايو سنة ١٩٣٧ وكذلك كان

وما كاد يتقلد رآسة الوزارة حتى اقتضح لزملائه فيها ان الرئيس جمبرلين خطة معينة يريد تنفيذها وعندما اختار معارضيه في شتى انحاء الوزارة لم ينظر الى آرائهم فقط بل قدم على ذلك قدرتهم على التعاون معه في تنفيذ الخطة التي يرسمها. وقد اضطر آنا بعد آن ان يتخلى آسفاً عن معارضة هذا الوزير او ذاك فخرج ايدن من الوزارة اولاً (٢٠ فبراير ١٩٣٨) ثم دف كوپر (٣ اكتوبر ١٩٣٨) ثم هوربيشا (١٩٤٠)

ومما لا ريب فيه ان اسم نفيل تشمبرلين سيبقى ابداً متصلاً بحوادث سبتمبر سنة ١٩٣٨ وطيرانه — لأول مرة في حياته — ثلاث مرات الى المانيا علهُ يستطيع ان ينقذ سلام اوربا مما كان يهددهُ في تلك الأيام العصيبة. وكان مقتنعاً حقاً وصدقاً ان الاتفاق مع الدكتاتورين مستطاع. ولكنهُ على ما يوحي لم يكن يصدق ان في العالم حكاماً يستطيعون ان يخلفوا أيناب الذئب وراء صوف الخراف. فالناس الذين تعوَّد معاملتهم في ميدان الأعمال وميدان السياسة كانوا لا يخالفون وعداً ولا ينكثون عهداً قطعوه. فلم يكن في وسعهِ ان يتصور ان رئيس دولة يستطيع ان ينكث عهداً قطعهُ لرئيس وزراء بريطانيا!

وكان عليهِ ان يواجه حقيقة أخرى. وهي ان فرنسا مرتبطة بمعاهدة مع تشيكوسلوفاكيا تلزمها بمعاونتها معونة اذا اعتدت عليها المانيا. وكانت بريطانيا قد تعهدت لفرنسا بأن تحارب معها اذا خاضت حرباً مع المانيا لم تكن فرنسا فيها الدولة المستفزة أو المعتدية

ولكن كان هناك ما يدعو الى ان فرنسا لم تكن حازمة أمرها حينئذٍ فتنهض بعهدها لتشيكوسلوفاكيا ويضاف الى هذا ان تأهب بريطانيا الحربي لم يكن على أرقاه

ولا بدَّ لنا في هذا المقام من ان نورد في ايجاز ما يدور في تأييد سياسة ميونخ ونقدها

١ — مهما تكن تشيكوسلوفاكيا جمهورية عظيمة الشأن فانها ليست مما تجدر ان تقيم سوق الحرب من اجلها. فالرد على ذلك: — هل يوثق بما تجدر منهُ بثبات؟

٢ — كانت تشيكوسلوفاكيا غير عادلة في معاملة أقلياتها. الرد: — كان في الحكومة التشيكوسلوفاكية وزراء ألمانيون. وانما ليست حالة الأقلية الالمانية في بلاد السوديت بحالة الأقليات العنصرية في بلدان اوربية اخرى فقد نالت الامتيازات التي كان يحلم السوديت بالتمتع بها. ومهما يسع الحق ميونخ لا انهُ حوَّل تشيكوسلوفاكيا ملايين تشيكي الى اقلية مضطهدة حقاً. ولقد كانت تشيكوسلوفاكيا تحسب جمهورية نجح في انشاء الحكم الجمهوري قبل ان عقدت مشكلتها وزادت جريدة التيمس ان تعلنَ تلك المشكلة على حساب تشيكوسلوفاكيا بقطع منطقة السوديت منها مع انها كانت تعلم ان معظم المانيي السوديت — لكل الأعذار — وهم

٣ — كان من المتعذر على بريطانيا وفرنسا مساعدة تشيكوسلوفاكيا مباشرة لأنها في قلب

اوربا ولا وصول اليها . الردُّ : — خير وسائل الدفاع عن صديق معتدًى عليه هي مهاجمة المعتدي من اوراء . فالحصر البحري وشغل سلاح الملايا الجوي ومهاجمة خط سيجفريد قبل تمام انشائه، جميع هذه الوسائل كانت كافية لمساعدة تشيكوسلوفاكيا اذا اعتدت المانيا عليها . ومن المرجَّح ان هتلر نفسهُ لم يكن غافلاً عنها . ثم هل كانت بولندا في سنة ١٩٣٩ أقرب الى بريطانيا وفرنسا من تشيكوسلوفاكيا سنة ١٩٣٨

٤ — لو حاربت تشيكوسلوفاكيا لسحقت ؟ الرد : — كان لتشيكوسلوفاكيا خطوط محصنة في مناطق جبلية وجيش مسلح بعد مليونًا ووراءه مصانع سلاح عظيمة (مصانع سكودا) فاجتياح المانيا لتشيكوسلوفاكيا إجتياحاً سريعاً في سنة ١٩٣٨ لم يكن أمراً محتملاً من الناحية العسكرية

٥ — أعتدت تشيكوسلوفاكيا باتفاق ميونخ . الرد : دلت الحوادث على أن الضد هو الواقع

٦ — كان الشعب البريطاني ممتنعاً عن تأييد تصريح يضمن سلامة تشيكوسلوفاكيا ضماناً ينفذ من تلقاء نفسه اذا اعتدي عليها . الردُّ : — إذا كان تشمبرلن قد أفضى بتصريح من هذا القبيل فأنهُ كان ولاريب ينتقص من منزلته في نفوس الشعب البريطاني . وهل أفضى ضمانه ليولونيا الى مثل هذا الاعتراض ؟ إن الدول الديمقراطية ما تزال قادرة على الاستجابة الى الزعامة الحازمة . وقد تبعتهُ الأمم البريطانية مفتحة البون الى الحرب تنفيذاً للضمان البولوني

٧ — لم تكن بريطانيا متأهبة للحرب في سبتمبر ١٩٣٨ . الردُّ : — الواجب يقضي على كل حكومة ان تكون قدرتها على الدفاع وافية في كل وقت . ثم ألم يخسر الحلفاء خسارة عسكرية عظيمة بتسليم حصون تشيكوسلوفاكيا وتسريح جيشها المسلح وسلاحها الجوي وسقوط مصانع سكودا في أيدي الألمانيين ؟ وهل تكفي سنة من التأهب الحربي لتعويض خسارة من هذا القبيل؟

ومهما يكن من أمر فالسياسة التي جرى عليها تشمبرلين في سبتمبر سنة ١٩٣٨ وانتهت الى اتفاق ميونخ كان لها أصل في طبيعته وهو مقت الحرب والنفور منها أو أصل في الواقع المفوس وهو خطر نشوبها حينئذٍ . وستبقى هذه السياسة موضوعاً للجدال والمناقشة بين مؤيديها ونقديها الى أن تتاح جميع الحقائق للمؤرخ المنصف في المستقبل . ولا ريب في ان تشمبرلن بذل غاية ما يستطيعه انسان لصون السلام في تلك الأيام فاز فوزاً مؤقتاً لا غير . ولكن مساعيه أظهرت العالم أجمع على حقيقة المقاصد البعيدة التي يقصدها زعماء الوطنية الاشتراكية

ولم تثبت أن لاحت من الحرب معالم استطاع تشمبرلين ان يتكلم صباح ٣ سبتمبر ١٩٣٩ باسم أمة متحدة تؤيدهُ بلدان الامبراطورية وأمم وجماعات في مختلف انحاء العالم . وجميع الذين اشتغلوا معه في أشهر الحرب الأولى من سبتمبر ١٩٣٩ الى مايو ١٩٤٠ — عند ما استفاق — يشهدون بأن الخطر الذي تجلى في مسعاه لصون السلام قبل نشوب الحرب لم يبارحه في مواصلته . وانهُ من أعظم بواعث الأسى أن يقضي قبل أن يبلغ ثمر النصر ولكنه رأى بواكيره

الحس العملي

في الفكر الانكليزي (١)

يبني الانكليزي أعماله على الاختبار. ويأبى أن يصدّق ملاءمة نظام ايديولوجي ما لم يقتنع بأنهُ لنظام عملي تستطاع ممارستهُ. فلهُ وجهة معضلة ما اعتمد على ذاكرته — والذاكرة مرجع الاختبار — أكثر من اعتماده على عقله. بينما الفرنسي يعتمد على العقل في الحالة نفسها أكثر من الاعتماد على الذاكرة. وهذا يعلّل لكم لماذا تستطيعون أن تثيروا اهتمام الانكليزي بمسائل لها أساسٌ أدبي. ذلك بأن أدب النفس هو نتيجة الاختبار. وهو يعلّل كذلك لماذا تترك المسائل الفكرية المجرّدة فاتراً فالآخر كه. فالحرية والإخاء يحرّكان لا بمعنيان شيئاً في نظره. ومما يستوقف النظر ولهُ مغزاهُ أن معاملة أقليات معينة في بلاد أثارت من سخط الانكليز أكثر مما أثارهُ الفاد حرية القول والصحافة والنيابة وغيرها من المنشآت التي يعزّها الانكليزي ويتمسك بها. فالانكليز يمتازون بأسلوب ممارستهم لنظام ما لا بمبادئه التي يرسومها، وبوجه منشآتهم ومعاهدهم لا بطبيعة المنشآت نفسها. أي شعب عاقل يأخذ ما أخذه الانكليز — نظاماً تعليميًّا وقانونيًّا موروثاً من القرون الوسطى ونظاماً سياسيًّا بلغ من التعقيد مبلغاً يجعل تطبيقهُ — على ما دلّت التجارب — متعذراً إلاّ على الانكليز أنفسهم، ثم يعتبرون ما أخذوه هدية ثمينة؟ ومع ذلك أجرؤ فأقول: وأيّ شعب آخر استطاع أن يجني من منشآت أخرى تفوق هذه المنشآت، ما جناه الانكليز منها بحسهم العملي واسلوبهم في ممارستها

وإني لأسألكم أن تبدوا النظر معي في ثلاث نواحٍ من نواحي الانكليزية من حيث صلتها بهذا الحسّ العملي

أولاً تقليد الأمانة في التجارة. ان الاستقامة التي ما فتئت مبدأً سائداً صفتا التجارية منذ ثلاثة قرون ليست أقلّ ما قدمناهُ إلى الحضارة الغربية. وهي ناجمة على الأخص عن نظري من النقطة العملية. فهنا جاء «البيوريتان» وهم المتمسكون تمسكاً دينيًّا علّموا بأن الله مع المجتهد وأنهُ يجزيه مثنياً «أن الامانة خير سياسة». أي انهم علموا ان الاستقامة، لاقتصادية تأتي ثمارها في الدنيا والآخرة. والواقع إنها أتت ثمارها في الدنيا على ما نستطيع أن نحكم. الانكليزيّ وحده يصدق ذلك. فحسهُ العملي مؤيداً بتعليم تلك الدين الذي عقيدتهم قمة من زمن بعيد بأنّ الاساليب الملتوية لا تجدي وأنك لا تستطيع أن تحيي حياة وتعيش جيّداً مستمرّاً إلاّ اذا كانت كلمتك تمكث وعهدك. وعلى هذا نشأ التقاليد العملي المعنون تقييد الاستقامة في الاعمال التجارية

---

(١) من محاضرة ألقاها بالمعهد الملكي للاميركيين المعهد الملكي للاميركيين في مصر تحت عنوان «الحس العملي في الفكر الانكليزي»

ولكن لهذه الصورة وجهها الآخر. فهناك هوَّة روحية تتعرض تحت الآخذين بقائد « اليورتان » للسقوط فيها ، وعلى مقدار ما تتصف بالحس العملي والكفاءة تزداد خطر تعرضنا لهذا السقوط. فاذا كان الله ، كما قال اليورتان ، في جانب النجاح الاقتصادي ، فالشيطان يجب أن يكون ملازماً لمن يخيب وكذلك تصبح الفاقة خطيئة علاوة على أنها مصيبة . وعندما قال نلسن — وهو مثل بارز على عبقري عملي — « إن قوة القوة جريمة لا أستطيع التغلب عليها » كان يعرب عن رأي لم يكن نادراً حينئذٍ في الدوائر التجارية المحترمة في عصره . ولعل هذا كان الثمن الذي إقتضاه منا إملاؤنا قواعدنا التجارية على أوربا

أما الناحية الثانية من الحياة الانكليزية التي أجد فيها للحس العملي شأناً عظيماً فهي ناحية « الطبقات » . فلسنا نجد في بلد آخر الميزات الاجتماعية التي تنطوي في هذه اللفظة وقد بلغت مابلغتهُ في انكلترا من التصلب والمرونة في آن واحد . فاذا كانت الطبقة العليا مفصولة فصلاً محكماً عن سائر الشعب ، فتلك طبقة مقضي عليها بالانحلال والفناء . أما وقد أحسَّ الانكليز هذه الحقيقة فتراهم يضيفون دائماً الى طبقتهم الارستقراطية أعضاء جدداً يختارونهم من أصحاب الصناعات وأقطاب القوات الحربية ورجال القانون والسياسة وحتى رجال المسرح . وهذا النظام مزدوج الأخذ والعطاء . فأبناء الأعيان الذين يلون الابن الأكبر يصبحون من العامة فيشتغلون طريقهم في ميادين الحياة المختلفة . والمختارون من العامة يصبحون من الأعيان . وكذلك تستمد طبقة الأعيان استمداداً دائماً قوة جديدة من العناصر الحيوية في الأمة فتضم بذا ، بينما تشتمل العامة على الضد من طبقة البورجوي — المتوسطة — في شعوب القارة الاوربية ، على عناصر كثيرة مخمَّرة منصتة بالارستقراطية . وهذا يعلل لنا قول من قال في تعريف التاريخ الانكليزي — انهُ الارستقراطية مفتحة الأبواب

وأخيراً هناك الناحية العملية في الرأي السياسي . فقد عرَّف الانكليزي بأنهُ في صميمه حيوان سياسي . ولكني لست أفهم ماذا عرفنا بهذا التعريف لأني لا أعرف شعباً أقل عناية من الانكليز بالنظريات السياسية . ولكن النظريين جميعاً واحدة في نظرهم ما زالت لا تمسُّ شخصيتهم والعامل الوحيد الذي يشعر عليه سيرة عمدا هو الفطنة أو الحس العملي السليم

[illegible] هذا يفسر [illegible] زعمهم الخاصة ورغبتهم في الانفاق الوسط

ومما نستطيع أن نقسم جميع الناس الذين يعنون بالسياسة الى فريقين . ففريق يرى أعضاؤه أنهم يستطيعون أن يحشوا نظاماً جديداً بمعاملة بعض الناس أي أنهم يؤمنون بالاصطناع . فهؤلاء هم الثوريون الذين يظنون أن مشاكل الحياة القائمة في الحاضر ، غالصة في الماضي البعيد فيرغبون في إفراغ المجتمع في قالب جديد مصطنع يضعونهُ أنفسهم وينتزعون من القالب الذي أفرغت فيه على مرّ العصور . أما الفريق الآخر فيشمل الذين ينظرون الى الأشياء على أنها تنمو نمواً ذاتياً ويؤمنون

بأن المجتمع جسم عضوي، ان فصلهُ عن ماضيهِ وقطع صلتهِ بهِ يؤذيهِ وقد يتلفهُ ويقضي عليهِ فانهُ في نظر هؤلاء هو « الماضي » وقد أضيف اليهِ الموتُ الكبير الذي يشملهُ كل قرنٍ من الزمان. وألفاظ « الثوري » و « الطوبجي » و « الجاف » أو « المحافظ » و « المتصرف » ليست إلا أسماء تخفي وراءها هاتين النظرتين الأصليتين الى الحياة. اما نرى أصوب هاتين النظرتين في « جودوين » و « برك ». فعندما نشر « جودوين » من قرن ونصف قرن « عدالة السياسي » كان موقفهُ من المجتمع موقفاً ارستقراطيًّا في صميمهِ. فأنكر كلَّ ما سبق. وطالب بمحو كلّ ما دوّن على اللوح، ليبني هو على هذا اللوح النظيف، شيئاً جديداً لم يجرّب من قبل أي انهُ رغب في ان يقطع سلسلة الاستمرار التاريخي في الحياة القومية. كان قوي الحجة ولكنهُ كان مفكراً ثوريًّا. أما موقف « برك » فكان موقف من يدرك مغازي التاريخ. فالاجتماع في نظره وليد الزمن. وقطع الصلة بالتقاليد قطعاً باتاً في منزلة الانتحار، ويعدّ بالحياة كارثة انسانية عظيمة، فاذا فعلت ذلك فأنت — في رأي برك — تعالج المجتمع كأنهُ مادة جامدة ميتة، لا جسماً عضويًّا تنبض الحياة فيهِ

وموقف الانكليز من جودوين وبرك دليل قاطع على سجيّة عقليهم. فبينما كان جودوين يُثلب، رفع برك الى مصاف الأعيان. وأسارع الى القول بأن هذا الاختلاف في معاملتهما ليس مقياساً لقيمة أفكارهما. فكثير من أفكار جودوين وآرائهِ كان مبتكراً. وكثير من آراء « برك » كان عاديًّا مسلماً. وانهُ لمن الواقع ان الأجنبي عن اللغة الانكليزية العاجز عن التعمق في دراسة برك وبلاغتهِ يدهش للمنزلة التي نزلناه فيها إلا أن تقدير برك ليس مسألة يستطيع ان نزعم اننا ننظر فيها نظراً مجرداً عن الهوى. فهو يؤثر في الحس العملي الذي يتصف بهِ الانكليزي. وهذا كل ما في الأمر لا أكثر ولا أقل

فالانكليزي من الناحية السياسية، منقاد كبرك، للذاكرة، والاختبار لا لتعقل المجرد

وأظن ان هذا القدر من الكلام في خلق الانكليزي يكفي للبلة. واني لأرجو أن يكون ما قلته عن النوع في خلقه، وعسكه بطابعهِ أو أسلوب من نوع معين، وحسه العملي، مفيداً في تقدير الاضافات الجامدة التي أضافها الانكليز الى حضارتنا وهي موضوعات الحديث عن الثانية

ولكن هناك شيء آخر أريد أن أضيفهُ الى ما تقدم. كان آخر ما قلتهُ ان الانكليزي يؤمن بناء المجتمع المشترك بناء عضويًّا، فهو يراه شيئاً حيًّا، ينمو وفقاً لقوانين خاصة بهِ وبادراته الخاصة. وانهُ لمحارب اليوم. لكي يكافح نزعة يعتقد بها ان الاجتماع الى حد ما روحية لافراطه بالقوة في قالب بيروقراطي بارد فاسد. واني لمقتنع بأن عناصر الخلق الانكليزي — وهي الشجاعة وما يلازمها والحس العملي القوي — فيها الكفاية لهذا الكفاح. وعندي أن الانكليزي يجد في تراثهِ كفاية فرصة لتعزيز نفسهِ ثم اغترابهِ وثباتهِ على الخلق الانكليزي

مجلة المقتطف

البستاني

للشاعر الفيلسوف الهندي رابندرانات طاغور

— الجزء الثالث —

نقلها الى العربية كامل محمود حبيب

البستاني

للشاعر الفيلسوف طاغور

— ٥٧ —

يا دنياي ، لقد قطفتُ زهرتك !
ثم ضممتها الى قلبي فوخزني شوكها
وحينما انهزم النهار ، وانسدل الدجى ، ألفيتُ الزهرة قد ذوت ، غير أن الألم ما انفك يخزني

* * *

يا دنياي ، إن زهرات أُخر ستتفتح بالعبير والسريراء
ولكنْ عمراً كنت أقطف فيه الزهر قد ولّى ، وفي غسق الليل فقدتُ زهرتي
غير أن الألم وحده ما انفك يخزني

— ٥٨ —

ذات صباح ، في البستان المزدهر ، أقبلت فتاة عمياء تقدّم إليّ عدداً من الأزهار لعبتْ في ورقة من أوراق اللوتس
فأحطت يدي وأنهلت عيناي
ثم قلتها وأنا أحدثها « أنت عمياء مثل هذه الزهور
« وأنت نفسك لا تدركين جمال هديتك »

— ٥٩ —

أيتها المرأة ، لست من صوغ الخالق فحسب ، بل أنت من فن الرجال أيضاً ، فهم أبداً ينسجون عليك الجمال من أعماق قلوبهم
فالشعراء ينسجون لك ثوباً من خيوط الخيال الذهبي ، والفنانون يبدعون أبداً على خدك فنّاً من الخلود القشيب
والبحار تلقي درّها ، والمناجم تثر عسجدها ، والبساتين تفتح — في الصيف —

عن أزهارها ، لتكون لك حلية وزينة وبهجة
إن رغبات القلوب تتفح شبابك بالبهاء
فأنت ... نصف امرأة ، ونصف خيال

— ٦٠ —

وسط ضوضاء الحياة وحولها تقفين أنتِ ، أيتها الخيلة ، وحيدة على الثغر ، في صمت وهدوء ، كأنك قد نُحتِتِ على صخرة
والدهر منكب عند قدميك في تذلله يهيم :
« تحدثي ، تحدثي إليَّ ، يا من أحب ، تحدثي إليَّ يا عروس ! »
غير أن كمائنك كانت قد أغلقتْ في صخرة ، أيتها الخيلة القاسية

— ٦١ —

إن الهدوء ، يا قلبي ، يذر السر ينقضي في بهجة
وهو لا يجعل النهاية موتاً بل كمالاً
وهو يدع الهوى يذوب في الذكرى ، والألم يفنى في الأغاني
ويذر الرحلة عبرَ السماء تنتهي في طيات جناحين يدفئان على وكر
ويجعل القبلة الأخيرة من يديك لطيفة كزهرة النيل
قبي قليلاً ، أيتها النهاية الجميلة ، وتحدثي آخر أحاديثك في هدوء
إني أنحني أمامك ثم أمسك بمصباحي لأنير لك الطريق

— ٦٢ —

في طريق الخيال الحالك ذهبتُ أفتش عن هوى لي كان في خير حياة

* * *

لقد كانت دارها على طرف الشارع الخالي
في نسمات الليل جثم طاووسها الدلال على الباب وتذرى بدموع جفنيه ، وازوى حمامها هامداً في كِنّ

* * *

لقد وضعت هي مصباحها إلى جانب الباب ووقفت بزاني
ثم رفعت إليَّ عينيها النجلاوين وقالت في هدوء « أنت في خير يا حبي »

وجهدت أن أتلمس جواباً فطلبني العيّ

* * *

ثم فكرت وفكرت، فما استطعت أن أجد في خاطري شيئاً حتى أسماءها

فزفرت البرات في محجريها، ثم مدّت اليّ يمناها فتناولتها ووقفت في صمت

* * *

لقد اضطرب مصباحي في لمسات الليل ثم خبا

— ٦٣ —

أيها النازح، أحقاً عليك أن تبرح ؟

إن الليل ساكن، والظلماء تنشر أستارها على الغابة

والمصابيح في طنبي تتألق، والزهور نضرة، والأعين الشابة ما تزال في يقظة

أفآن لك أن تسير ؟

أيها النازح، أحقاً عليك أن تبرح ؟

* * *

إنا لم نقيد قدميك بأذرعنا المتوسلة

إن الأبواب أمامك مفتوحة، وحصانك لدى الباب مُسرج

وإذا كان لنا أن نسد عليك الطريق فذلك بأغانينا فحسب

وإذا كان لنا أن نردك الينا فذلك بنظراتنا فحسب

أيها النازح، إنا لا نجد القوة على أن نمسكك، وما لنا من سلاح سوى البرات

* * *

ما هذا اللهب الذي يتسعر في عينيك ثم لا ينطفىء ؟

ما هذه الحمّا التي تتدفق في دمك ؟

أي نداء في ضمير الليل يلح عليك ؟

أي رؤية مروعة استطلعت من خلال النجوم، فاضطربت رسالتها السرية المختومة

التي قلبك من خلال الليل ... أتسريت في صمت وشذوذ

* * *

اذا كنت لا تبالي بالقيا جبلة أيها الغلب انفض يدك وامضِ الى الهدوء، فسنطفىء المصباح ونحطم القيثار

ثم نجلس في هدوء الظلام بين حفيف أوراق الشجر، على حين يلقي القمر شعاعه الشاحب على نافذتك

أيها النارح . ماذا عسى أن تكون روح الأرق التي نسمعك من صفير الليل ؟

— ٦٤ —

لقد نضيت يومي على ثرى الطريق المضطرم
والآن في برد الليل ، وقفت أطرق باب الخامة ، فألفيتها خاوية خربة
إن شجرة (الأشات) المقصفة قد جذورها النهمة خلال درجات الحائط

* * *

لقد آن لعابري السبيل أن يتزاوروا هنا ليضعوا أقدامهم المكدودة
إنهم ينشرون حصيرهم في الفناء عند شروق القمر الشاحب ثم يجلسون يتجاذبون حديثاً عن البلاد النائية

وفي الصباح ، تبعث فيهم الأطيار روح المرح ، فيهبون في نشوة ، على حين تحني لهم الزهور الحيية رءوسها من جانب الطريق

غير أني لم أجد ضوء مصباح ينتظرني حين أنزلتُ

بل تراءى لي سناج مصابيح ظلت تشتعل ليالي كثيرة ... تراءى لي يرمقني من خلال الحائط كأنهُ عيون عمياء

والفراش يضطرب بين الشجيرات مزاء البركة الجافة ، وأغصان الجميزان قد ظللاها على الطريق المشوش

فأنا الضيف الذي لا يجد القرى وقد مالت ميزان النهار
وأمامي الليل طويل ، وأنا متعب

— ٦٥ —

أفيكون هذا نداؤك أيضاً ؟
لقد أنلتُ الشدة ، والقلوب يضمني إليه ... ةُ دراعا محب رقيق
فهل تناديني ؟

* * *

لقد أوقفتُ عليك — أيتها حسناء القاسية — نهاري ، فهل تريدين أن تسلبني من ليلي أيضاً ؟

في مكان ما ، يؤوي كل شيء الى النهاية ، وتسكن وحشة الظلماء هي لي أنا

فهل يخترقها صوتك اليّ يصغي ؟

* * *

أفلم يعزف الليل لحن النوم لدى بابك ؟
أفلم تخفق النجوم الصامتة في السماء من فوق برجك الجافي ؟
أفلم تهز الازهار على ثرى بستانك بين يدي الموت الرقيق

* * *

أختماً أن تناديني ، أيتها القلقة ؟
إذن دعي أعيناً آذاها الهوى تتشوّف عبثاً ثم تذرف العبرات
دعي السراج يحترق في البيت المنزل
دعي الزورق يحمل الماء المكدودين إلى دورهم
إنني أذر أحلامي وراء ظهري ثم أنطلق لأبي نداءك

— ٦٦ —

هذا الأفق المُلتاث كان يفتش عن حجر الفلاسفة ، وهو أشعث أغبر ثم مال الى الظل وقد ضمّ شفتيه مثلما أغلق باب قلبه ، وعيناه تأججان كأنهما حباحب [1] يبحث عن رفيقه

* * *

إن أمامه المحيط اللانهائي يزمجر
وهذه الأمواج المضطربة تتحدث أبداً عن الكنوز الخفية ، وتسخر من الجاهل الذي لا يفقه حديثها
لعله فقد الأمل ، غير انهُ ـ بهدأ لأن التعب أصبح دأبه ...
مثلما يفعل البحر حين يرفع واعيه الى السماء ليبلغ المستحيل
أو مثلما تفعل النجوم حين تنطلق في أفلاكها لتنتهي إلى غاية لا تدرك
وبرغم هذا فالأفق الملتاث ما يزال أشعث أغبر يفتش عن حجر الفلاسفة

* * *

وذات يوم أقبل صبي ربيعي يسأله « خبّرني ، أين وجدت قلادتك الذهبية ؟

---

(١) الحباحب ويسمى القدوب : حشرة تشبه الليل تضيء ، وإذا مشت أضاء منها وراء الطائر يرجع الى قدرتها على تحويل بعض الغذاء الذي تركيب جسمها . وإذا مشت مثلت ضوءاً بعد آخر ضوءاً شمعة واحدة

نظر الملتاث . . . هذه القلادة الذهبية كانت من حديد ، لم يكن هذا حقاً ولكنهُ هو لا يستطيع أن يثبت متى استحالت إلى ذهب

فراح يضرب جبهتهُ في عنف . . . أين ، أين ، أين نال هو فوزاً ما مجس في ضميره؟

لقد أصبح من طبعه ان يلتقط الحصباء ويمس بها القلادة ثم يلقي بها دون أن يرى أثر اللمسات ، وهكذا وجد الملتاث الحجر ثم فقده

لقد كانت الشمس تتحدر الى الغروب فاصطبغت السماء باللون الذهبي

فعاد الملتاث يفتش ثانية عن الكنز المفقود ، ولكنه كان قد مسَّ الثوب فانحطم جسمه ولصق قلبه بالثرى كأنه شجرة اجتثت من فوق الأرض

— ٦٧ —

ولو أن الليل يقبل في خطى وئيدة يوحي الى الأغاني ان تتخافت ،

ولو أن رفاقك قد فزعوا الى مضاجعهم وأنت تحس التعب ،

ولو أن الخوف يفرغ في الظلماء ، ووجه السماء متقلب ،

لكنك أنت أيها الطائر ، يا طائري ، استمع إليَّ ولا تسدل جناحيك

* * *

ليست هذه عثمة أوراق شجر انقابة ، بل هي عباب البحر وكأنهُ احية السوداء

ليست هذه رقصة أزهار ياسمين ، بل هي وعثات الزبد

آه ، أين الشاطىء السندسي المشرق ، أين وكرك ؟

أيها الطائر ، يا طائري ، استمع إليَّ ولا تسدل جناحيك

* * *

إن الليل الموحش قد ران على الطريق البلق ، والفجر وسنان خلف الهضاب المظلمة

والنجوم تمسك أنفاسها وتحصي الساعات ، والقمر الحائر يسبح عبر الليل العميق

وأنت أيها الطائر ، يا طائري ، استمع إليَّ ، ولا تسدل جناحيك

* * *

لا أمل عندك ، ولا خوف

لا كلة ، ولا همسة ، ولا صيحة

لا دار لك ، ولا فراش ترتاحه

ليس لك غير جناحين وإلا السماء الندية

يا أيها الطائر ، يا طائري ، استمع إليَّ ولا تسدل جناحيك

— ٦٨ —

يا صاحبي ، ليس على الحياة مَنْ يجد أو ما يعسر . احفظ هذا عني ثم التمس لنفسك لذتها

ليست حياتنا وحدها حملاً قديماً ، وليس سبيلنا وحده سفراً بعيداً
وليس لشاعر واحد أن يترنم بأغنية خالدة
إن الزهرة لتذوى وتموت ، ولكن الذي يتحلى بها لا يأسى عليها طويلاً
يا صاحبي ، احفظ هذا عني ثم التمس لنفسك لذتها

* * *

لا بدَّ من سكتة تنشد الموسيقا — من بعدها — لحن الكمال
فالحياة تدلف صوب الغروب لتغمر في الظلال الذهبية
والحب لا بد أن يرتد من ملعبه فيرشف كاسات الحزن ويلغ أسباب العبرات
يا صاحبي ، احفظ عني ثم التمس لنفسك لذتها

* * *

إنا تدفع لتقطف زهراتنا خشية أن تسلبها الرياح العاصفة
وإنه ليفت الحياة في عروقنا والتأنق في نظراتنا أن نختلس قبلات كانت تخطئنا إن أبطأنا
إن حياتنا تجذب القلوب ، وإن في رغباتنا الحدة ، لأن الزمان يدق ناقوس الفراق
يا صاحبي ، احفظ عني ثم التمس لنفسك لذتها

* * *

ليس في العمر سعة لتمسك بالشيء ، فسحقه فتقذف به في الرغام
فالساعات تمر سراعاً تلف الأحداث في أذيالها
إن حياتنا القصيرة لا تلد سوى آه من الحب قليلة
ولو أنها كانت أيام عمل وجهد لتحدَّ من الزمن
يا صاحبي ، احفظ عني ثم التمس لنفسك لذتها

* * *

إن في الحنان حلاوة لأنه يراقص حياتنا على وتيرات النغم الزائل
والمعرفة غاية لأننا لا نجد في الأحلام نسجة لأيامها

كل شيء قد أنجز وتم في السماء الخالدة
ولكن زهرات الخيال الأرضي يفتحها الموت بالنضارة اللانهائية
يا صاحبي ، احفظ هذا عني ثم التمس لنفسك لذتها

— ٦٩ —

إني أصيد الظبي الذهبي
قد تبسم ، يا صديقي ، غير أني أراعي في إثر المنظر الذي يخلبني
فأنا أعدو عبر النجاد والوهاد ، وأضرب في أرجاء الأرض المجهولة لأتصيد الظبي الذهبي
إنك تأتي إلى السوق لتشتري وترجع إلى دارك حاملاً حاجاتك ، ولكن سحر الريح الأفاقة قد لمسني ولست أدري متى ولا أين
لقد تحللتُ من نوازع قلبي ، فكل ما يشغلني قد خلفته ورائي
فأنا أعدو عبر النجاد والوهاد ، وأضرب في أرجاء الأرض المجهولة لأتصيد الظبي الذهبي

— ٧٠ —

إني أذكر يوماً من أيام طفولتي حين كنتُ ألهو بزورقي الورقي وهو يطفو على الغدير
لقد كان يوماً طرباً من أيام بوبه وكنتُ وحدي ، سعيداً بألعوبتي
وكنتُ ألهو بزورقي الورقي وهو يطفو على الغدير

* * *

وعلى حين بغتة انعقدت السحب ، وعصفت ريح عاتية ، وفتحت أبواب السماء بماء منهمر
ثم تدفقت سيول الماء الكدر تجرف الغدير والمرقى زورقي
وفي أسى ، طاف بخاطري أن الحياة لا تهدأ إلا أن تحطم سعادتي وأن تثأر مني في غدر
وحان يوم يولي البوس ، فاطلقت حواطري من الاعيب الحياة التي بددتُ

وأخذت أنوم حظي على أن خدعني ، وعلى حين فجأة ذكرت زورقي الورقي الذي غرق في الغدير

— ٧١ —

لم ينصرم النهار بعد ، ولم ينقضِ اللعب . . . اللعب الذي على شاطىء النهر

لقد خشيت أن يكون بومي مسرفاً لم يدع لي فلساً

ولكن لا ، لا ياصاحبي ، إن شيئاً ما يزال معي ، وإن حظي لم يستلبني من كل شيء

* * *

الآن انقضَّ البيعان

لقد جمعت الضرائب من كل الطرقين ، وآن لي أن أرجع إلى داري

ولكن ، أيها البواب ، أتطلب جُعْلك ؟

لا تَرُعْ ، فإنما ما زلت أملك شيئاً ، لأن حظي لم يستلبني من كل شيء

* * *

إن سكنة الرباح تنذر بالعاصفة ، وإن السحب المتكهرة في الغرب لا تبشر بخير

ولكنه ساج ينتظر هبة الريح

أما أنا فأشتد لأعبر النهر قبل أن يشملني الظلام

ياصاحب المعبر ، لعلك تريد أن تطلب أجرك !

نعم ، ياصاحبي ، فإنما ما زلت أملك شيئاً ، لأن حظي لم يستلبني من كل شيء

* * *

وعلى جانب الطريق ، في ظلال الشجرة ، جلس الشحاذ . وا أسفاه ، إنه يحدق في وجهي بعينين تملؤهما الدموع يضطرب

ماذا في رأيه ، غير ما كسبت في يومي

نعم ، ياصاحبي ، فإنما ما زلت أملك شيئاً ، لأن حظي لم يستلبني من كل شيء

* * *

قد رحل الليل ، وخلا الطريق ، وياصاحب يتألق بين أوراق الشجر

لعل عساك تكون ياصاحبي ممن تتفضلني في خطى وئيدة خافتة ؟

آه ، لقد عرفت ، إنك تريد أن تنزع مني كل ما ملكت . لن أخيفك في رغبتك فأنا ما زلت أملك شيئاً ، لأن حقي لم يسلبني من كل شيء

* * *

وعند نصف الليل بلغتُ داري يدين فارغتين
وأنت لدى الباب تنتظرين في يقظة وصمت ، وفي عينيك الرغبة
ثم طرت الى صدري في شغف ، طيران الطائر الفزع
آي ، آي يا إلهي ، إن شيئاً كثيراً ما يزال معي ، فحظي لم يسلبني من كل شيء

— ٧٢ —

لقد دأبت على العمل الشاق أياماً لأشيد معبداً . . . معبداً لا باب له ولا نوافذ ، وحوائطه العريضة من الحجر الصلد

لقد نسيت ما عداه ، وأعرضت عن العالم ، ثم أخذت أحدق ، وأنا غارق في تأملاتي ، في الصورة التي علقتها على المذبح

إن الظلام الدامس يشمله دائماً ، غير أن مصابيح ذات الزيت العطري تنير جنباته

ودخان البخور المتكاثف يضم قلبي في ثنايه

وفي ثنايا الأرق ، رحت أنقش على الحيطان رسوماً خلابة في خطوط غريبة متشابكة ، أفراساً ذات أجنحة ، وزهوراً لها وجه إنسان ، ونساء بأرجل ثعبانية

ليس في المعبد فرجة تنفذ من خلالها هازج الطير ، ولا حفيف الأشجار ، ولا ضجة القرية الصاخبة

غير أن صوتاً واحداً كان يتردد في رحابه المقدسة ، هو صوت الرقى التي أتلوها إن في عمق النشاط والهدوء كما في لهب الحب . ومشاعري يغشاها الدهر فلست أدري كيف انقضى الزمن منذ كانت نافذة تصنع للمعبد . ومنذ كان الأمل يحز قلبي

* * *

إن المصباح يتراءى شاحباً خجلاً ، وإن نقوش على الحائط تتحرك كما سلسلة من الخيالات . . . تنصر في الضوء نظرات ورغبة كأنما تريد أن تواري نفسها

وكنت أنا أحدّق في الصورة على الدوام ، تخيل إليّ أنها تبسم وتتحرك اثر لمسة إلهية . بن الليل الذي سَجَنْتُ قد نشر جناحيه ثم توارى

— ٧٣ —

يا أمي الأرض ، ليس انوّاء اللانهائي لك أنت أيتها الشقاء الصبور
بنك تكدين لتدمي لحمة تصيب صيتك ، ولكن الغذاء قليل
وهدية اللذة التي تحفظين لنا ليس فيها الكمال
وانصب التي تصنعين لأبنائك هشة
إنك لا تستطيعين أن تشبعي تهم آمالنا ، أفأهجرك لهذا ؟
إن ابتساماتك حلوة في ناظريّ رغم أن آثار الألم تضطرب في نواحيها
وحبك عزيز على قلبي رغم أنهُ ناقص
من صبرك أسبغت علينا الحياة وليس الخلود،لهذا أرى عينيك،أبداً،في يقظة
منذ ترون وقرون وأنت تهيئين الأصباغ والأغاني ،وللآن لم تشبدي سماءك
بن وساوسها الحزينة
وهناك ، حول خلقك الجميل سحب من العبرات
سأمسك نفسي في قلبك الصامت ، وأفرغ حبي في هواك
سأعيدك بالعمل
فقد رأيت وجهك النقي — يا أمي الأرض — فأحببت تراك الكئيب

— ٧٤ —

على مسرح الدنيا جلست النبتة الضئيلة وشعاع الشمس ونجم الليل جميعاً
على بساط واحد
وهكذا اتخذت أغانيّ مكانها في قلب الارض بإزاء موسيقا السحب والغابات
ولكنك أنت أيها الفتى،بن رؤوسك لا تجد مكانها في سلطان الشمس الذهبي
المرح ، ولا في نور القمر الرقيق
بن رحمة السماء التي تضم الجميع لا تقربك
وحين يقبل الموت يعتريها الشحوب وتذوي وتهوي الى التراب

— ٧٥ —

في منتصف الليل قال الراهب المتنظر :

« لقد آن لي أن أبدد داري لأخرج الى ربي . آه ، من ذا الذي أمسك بي طيلة هذه المدة هنا ..... في هذا الضلال ؟ »

فهمس الله « أنا » غير أنهُ كان في أذني الرجل وقرٌ

وفي ناحية من الفراش كانت تنام زوجه في هدوء ، وقد ضمت طفلها النائم الى صدرها

قال الرجل « من غير أن تكون بإمكان تفلتني ليلة هذه المدة ؟ »

فيقول الصوت ثانيةً « إنهُ هو الله » ولكنهُ ما يزال في أذني الرجل وقرٌ

وصاح الطفل من خلال أحلامه وقد لصق بأمه

فأمرَ الله « قف أيها الغبي ، لا تترك دارك » ولكنهُ ما يزال في أذني الرجل وقرٌ

فيعيد الله في تذمر « لماذا يريد عبدي أن ينطلق يفتش عني ، فيأتي عني ؟ »

— ٧٦ —

لقد كانت السوق في جوار المعبد . وكان المطر ينهلُّ منذ الصباح الباكر والآن قد انقضى النهار

كل هذا البشر الذي يشيع في وجوه الناس يبدو واهياً إذا قيس بابتسامة تأتي من شفتي صغيرة احتازت بين واحد — حفارة من سعف النخيل

بصوت صفير هذه الصفيرة الحاد المرح يقضي على كل هذه الضحكات وهذا الصخب

... أين فيض من الناس يزاحمون ، على حين كان الطريق رحباً . والزهر مرتعاً . والحقول تحت عين من النهر ما يكفي

وفي خلال هذا الصخب يفوق كل ما تعانيه هذه الزهرة ، فهولا يجد منها واحداً يتذكرني عكازاً

وصباح المشوقتان ترمقان تلك التي هي ساكنة في هذا الدير

— ٧٧ —

نقد نزح العامل وزوجه من الأقطار القريبة ، وهما الآن يحفران في جد يشان الطوب للقرميد

وابنتهما الصغيرة تختلف الى الموردة حيث لا تنتهي من صفن الصدور وجلاء الأوعية

وأخوها الأصغر يسير على أثرها ، ورأسه حليق وأطرافه السمر عارية وملوثة بالطين ... وهو لدى الشاطىء ينتظر أمرها في صبر

ثم هي ترجع الى الدار وعلى رأسها جرتها المزعة منتصبة في اتزان ، وقدرها النحاسي اللامع في يسراها ، وفي يمناها يد أخيها الأصغر ... إنها خادم أبيها الصغيرة خدمها التي تحمل أعباء الدار

وفي ذات يوم ألفيت هذا الصبي العاري جالساً وقد مدّ رجليه

وأخته على الماء تحك وعاء الشرب بقبضة من تراب ، وهي تديره بين يديها وتديره وعلى خطوات منها حمل ناعم الصوف يرعى على طول الشاطىء

وراح الحمل يدنو من الطفل رويداً رويداً ، وعلى حين فجأة ماءاً فزع الطفل وصرخ

فنبذت الأخت وعاءها وانطلقت صوب أخيها

ثم أمسكت بالطفل في يد وبالحمل في يد ، وجعلت كلاً منهما ببعض عطفها ، ومن قلب واحد انبعث حنان الأمومة الحيوانية والانسانية معاً

— ٧٨ —

لقد كان في مايو ، والظهر المكفهر يتطلّى كأنه لا نهائي ، والأرض الجافة تنفخ حُرق العطش من أثر الحر

في حين سمعت من جانب النهر صوتاً ينادي « تعالي يا عزيزتي »

فأغلقت كتابي وفتحت الشباك أتشوّف

فرأيت جاموسة ضخمة ملطخة بالطين تقف الى جانب النهر في هدوء ، وفي عينيها الصبر ، وعلى خطوات منها فتى ينادي بنداءه لذة ما عمر هو فيه قديم

فجلست في طرب وأنا أستشعر لمسات اللذة في نفسي

— ٧٩ —

طالما جست خلال أرض تكمن فيها حدود المعرفة التي تفصل بين الانسان والحيوان . . . الحيوان الذي لا يعرف قيمة نعمة الكلام

في أي جنة أزلية في فجر الخليقة ، خُطَّ الطريق السهل الذي عليه تزاورت قلوبهما

أن آثار خطواتهما الثابتة لن تمحي وإن طمست الأيام على وشائج كانت بينهما

ولكن على حين بغتة ، وعلى نغم الموسيقا الالهية ، نهب الذكرى الغامضة فيحدق الحيوان في وجه الانسان في إخاء رفيق ، وينظر الانسان في عيني الحيوان في عطف جميل

فيتراءى كأن الصديقين يتلاقيان متنكرين ، فلا يستطيع واحد أن يتعرف على صاحبه من خلال قنابه

— ٨٠ —

أيتها الحسناء ، إن نظراتك تستطيع أن تستخرج كنز الأغاني من قيثارات الشعراء

ولكنك لا تعيرين ثناءهم أذناً سامعة ، ولهذا فقد جئت أتغلغل

إنك تستطيعين أن تدوسي أعظم كبرياء في العالم

غير أن أحباءك الذين لا تصيبهم نشوة هم الذين اخترت لتعبدي ، ولهذا فأنا أعبدك

إن جمالك وداعيك يريد في روعة تأنقهما المتوكلة

ولكنك تفضلين بهما العبارة وتقدرين مهما مدارك الأرضية ولهذا فالأسى يملأني

— ٨١ —

أيتها الحسناء ، يا فتاتي ، لماذا تصدر في أذني صفيراً حاداً

في المساء ، حين تتداعى الزهور ، وتؤوب الفتيان الى حظائرها . تسترق أنت الخطى الى جانبي وتتحدث حديثاً لا أفهمه

أهكذا — أيها الفناء ، يا فنائي — تريد ان تتودد إليَّ وتجذبني اليك بجرعة من حديثك الخدر وقبلاتك البيضة

* * *

أفلا يكون لعرسنا حفل بهيج ؟
أفلا تتوج عقائص شعرك الأسحر باكليل من الزهر ؟
أفلا يتقدمك من يحمل رايتك ، ومن يزيح ظلمات الليل بمشاعلك الحمراء ، يأيها الفناء ، يا فنائي ؟
تعال وهات قعقعات أصدافك ، تعال في الليلة الساهرة
وألبسني الرداء القرمزي ، ثم امسك يدي واجذبني اليك
ولتكن عربتك لدى باب على أهبة الرحيل ، وأفراسك تصهل في غير صبر
ثم ارفع قناعي . أيها الفناء ، يا فنائي . وحدق في وجهي في كبرياء

— ٨٢ —

إن عليَّ أنا وعروسي أن نلعب الليلة لعبة الموت
إن هذه الأمسية حالكة ، والسحب تتقاذفها الأعاصير ، والأمواج تزمجر
لقد بدَّت أنا وعرسي وطاء أحلامنا ، وفتحنا الباب على مصراعيه ، ثم خرجنا وجلسنا على الأرجوحة ، والرياح الزفزافة تدفعنا من وراء في عنف
لقد هبت عرسي في فزع ومرح ، ثم لصقت بصدري وهي ترتعد
وطالما حبوتها بعنايتي
لقد كنت أهيىء لها فراشاً من الأزهار ، وأغلق الباب خيفة أن يفزع الضوء اللجلاج عينيها
ثم أقبل شفتيها في رفق وأهمس في أذنيها في رقة حتى يغلبها النعاس
فتتمتم في حجب لا نهائية من اللذة الغامضة
لا تمس لساني ، ولا تستطيع أغانيَّ أن توقظها
والليلة بلغنا صوت العاصفة من الناحية الموحشة
فازدادت عروسي وهبت تمسك يدي في فزع
أن الرياح نعبث بشعرها ، وان قلبها يضطرب ، وان حلاها على صدرها توسوس

لقد ردتها دفعة الموت الى الحياة
وعن الآن ، أنا وعروسي ، وجهاً الى وجه ، وقلباً الى قلب

— ٨٣ —

إنما كانت تسكن في محلتنا الوادي على حافة غيط الذرة ، على خطوات من الغدير الذي يفيض على السواقي الضاحكة ، تحت ظلال الأشجار القديمة . إن النساء يأتين بملأن جرارهن ، والسمر يجلسون يتأنسون بأسباب الراحة والحديث وهي تعمل كل يوم وتحلم على ثغر جانب ماء الغدير

وفي ذات مساء أقبل عابر سبيل يُنشِّم من لدن القمة التي تلفها السحب ، وقد صفر شعراً كأنه الثعابين الوسنى ، فسألناه في دهشة « من عسى ان تكون ؟ » فلم يرد جواباً ، غير أنه جلس الى جانب الغدير الزئار ، وراح يرمق دارها في صمت ، فتصفت قلوبنا من رجفة الخوف ، ورجعنا الى دورنا حين أقبل الظلام

وفي الصباح التالي ، اقبلن النساء الى الغدير عند شجرات (الدودار) بملأن جرارهن . فألفين بابها مفتوحاً ، وقد صمت صوتها . فأين — يا ترى — اختفى وجهها البسام ؟ إن جرتها ملقاة على الثرى فارغة وقد احترق مصباحها . أي حدس سيتفيهن يقول الى أين ذهبت قبل ان يلمع الصبح ... والى أين انطلق عابر السبيل ؟

في شهر مايو أخذت الشمس تلفحنا بأوارها فأدابت الجليد ، وجلسنا نحن الى جانب الغدير نبكي . ونحيب « أتبكون في الأرض التي فزعت اليها غديرة ، ومن أين تملأ جرتها في هذه الأيام الظمأى ؟ » ثم انطلقنا نتساءل « أفهناك أرض وراء هذه التلال التي تضمنا ؟ »

كانت ليلة صافية ، والنسيم يهب من لدن الجنوب ، وأنا جالس في حجرتها الخالية حيث مصباح المنطقة ، وعلى حين غفلة رأيت التلال تنحسر أمام ناظري كأنها أستار ترفع ، آه ، انها هي تدنو . كيف أنت يا طفلتي ؟ أأنت سعيدة ؟ أين وجدت المأوى تحت هذه السماء المفرجة ؟ و ... وا أسفا ... لقد توارى الغدير الذي يفيض غُلَّتك ؟ »

فقالت دار السماء هي السماء غير أنها انفلتت من حدود الملاك ... وأن القدير هو القدير يشتد صوب النهر ... وإن الأرض هي الأرض تنبسط في سعة، فأرهفت أذنا وكل شيء هنا إلا أنحن ؛ فبقيت في خزر ثم قلت: إنك أنت في ملئي! واستيقظت من نومي فسمعت خرير الغدير وحفيف شجرات (الدودار) ... تمتمها تخرق صمت الليل

— ٨٤ —

على حفر الأرز الخضر والصفر انتشرت خلال سحب الخريف بطاردها شعاع الشمس المنطلق

لقد نسيت النحل أن ترشف رحيقها حين تكرمها نشوة الضوء ؛ فانطلقت في طيش تحوم وتغني

والبط في جداول النهر يبسط في مرح وإلى غير غاية

ياصاحبي : لاتدع واحداً ينطلق الى داره ينفث الى نحلة هذا الصباح

دعنا نمرح سماء الصافية قبل العاصفة ؛ ولتملأ الفضاء بالندو

إن الضحكات تسبح في الفضاء كزبد النهر

يا رفيقي ، لتشدد الصباح بالأغاني الباقية

— ٨٥ —

من عسى أن تكون يا قارئي الذي تقرأ أغاني بعد مائة سنة ؟

أنا لا أستطيع أن أرسل اليك زهرة واحدة من رياض الربيع ، ولا خيطاً ذهبياً من خيوط السحب البعيدة

فافتح بابك وسرّح الطرف

واجمع من حدائق الدهر شتات ذكرياتي ، وربما سمعت منذ مائة سنة

فلعلك من ثنايا نشوات قلبك ، تستشعر هذه الخفية التي أرسلت تحياتها في فجر يوم من أيام الربيع ؛ فسمعت صوتها الشجي منذ مائة سنة

الشعر لحمد فتحي كامل من الجيش

باب المراسلة والمناظرة

شجرة البانيان

وفصيلة التين

حضرة الاستاذ الفاضل رئيس تحرير المقتطف

أحييكم وبعد فرأيت ما نشرتموه في عدد نوفمبر لحضرة المحترم السيد أبو النصر احمد الحسيني الندي تحت عنوان ملاحظات عن ترجمة « البستاني » لطاغور فلفت نظري أمران أود ابداءهما بعد تحريرهما خدمة لتعميم الأول قوله إن شجرة البانيان ليست من فصيلة التين الى آخر ما ذكره، والحقيقة أنهما من جنس واحد وفصيلة واحدة هي التوتية (Moraceae) التي يندرج تحتها جنس التوت (Morus) وسميت به أيضاً وذلك لما يوجد من الشبه بين زهرتها وثمارها جميعاً وتسمى البانيان عند علماء النبات كما ورد في كتاب النبات لمؤلفه جورج بوست المطبوع في بيروت سنة ١٨٧٠ وغيره من كتب النبات المعتمدة المطبوعة حديثاً . هذا ويطلق اسم « البنيان » على شجرتين مختلفتين وان تقاربتا في الشبه (أي نوعين) وكلتاهما نبتت في الهند وتعتبر مقدسة هناك احداهما تسمى باللسان البنياني (Ficus indica, L.) وبالانجليزية ([illegible]) وبالفرنسوية ([illegible]) والثانية تسمى باللسان البنالي (Ficus benghalensis, L.) وبالانجليزية (banyan) وبالفرنسوية (figuier de pagodes و figuier de Bengale ou arbre banyan) والأمر الثاني هو قوله إن شجرة « أشوكا » تسمى بالأفرنجية (Jonesia asoca) والحقيقة ان هذا هو اسمها باللسان البنالي ويرادفهُ حديثاً (Saraca indica, L.) وبالانجليزية ([illegible]) وهي من الفصيلة الفرنية (Leguminosae)

محمود مصطفى الدمياطي

باب الأخبار العلمية

العلم والحرب

١ — طائرات الاسطول وعملها

السلاح الجوي التابع للاسطول البريطاني جزء أصيل من الأسطول ويأتمر بأمر قيادته. وطائرات هذا السلاح غدت عين الأسطول الحادة البصر في الاستكشاف والاستطلاع وذراعه القوية الضاربة في ضرب الأعداء. وهي الطائرات التي ضربت الأسطول الايطالي في قاعدة ترانتو ضربة قوية يوم ١١ نوفمبر الماضي. ثم ثلث على الأرصفة والمنشآت التي في الميناء طائرات السلاح الجوي البريطاني. وعادت طائرات الأسطول بعد ذلك تخلف فوق السفن المصابة فوكد رجالها بالنظر والتصوير تضوئي ان البوارج الثلاث معطلة وان الطرادين والسفينتين المساعدتين غارقة تحت الماء. ومن الطبيعي أن تساند هذه الطائرات الى قواعد في البحر هي حاملات الطائرات أو البوارج والطرادات الكبيرة والمتوسطة

مايميز الطائرات

تحاملات الطائرات سفن كبيرة هادئة تعلوها سطح مستو خال من العوائق ترتفع منه الطائرات في الجو وترتد عليه. وتسمى الحديثة منها « حاملات الارتد رويال » أو « الاستريوس » تسير طائرة أو أكثر

وتكون هذه الطائرات لا تبقى على السطح بل تنقل بأجهزة خاصة عند ما تحط على السطح الى حظائر خاصة مبنية تحت السطح في طبقتين وترفع اليه عندما يراد استعمالها. ويلحق بهذه الحظائر « ورش » فيها عمال متفننون لترميم ما يلزم ترميمه في الطائرة ومستودعات لبنزين وغير ذلك مما يلزم لكل رجال السفينة وعمالها

ومن حيث ان « حاملة الطائرات » هدف كبير لطائرات الأعداء لا تتباع سطحها الأعلى — وهو في منزلة مطار صغير — يجب ان تكون « حاملة » مجهزة بمدافع كثيرة مقاومة للطائرات. فمثلا نجد « الآرك رويال » مجهزة بستة عشر مدفعاً مقاوماً للطائرات من عيار أربع بوصات ونصف البوصة وثلاثة عشر مدفعاً صغيراً مضاداً للطائرات وستة مدافع مركبة من نصف البوصة الذي يسمى « يوم بوم » وهو تقليد صوتي وكل هذه المدافع المركبة تطلق قوهات متعددة تطلق مئات طلقات في دقيقة

وكانت « الآرك رويال » من أن طائرات مضادة للطائرات على قاعدة كانت في سردينيا في أوائل يوليو ١٩٤٠ وقد رأى الكثيرون من بحارة الأسطول الأهلية أغرقت هذه الحاملة مرارا في هذه الحرب — على ما يظن

الأثير . وجرى الطيار الذي أغرقها بوسام وترقية . ثم اشتركت في البحث عن السفينة الحربية الألمانية المغيرة على السفن التجارية في المحيط الأطلنطي فقصت ٧٥ الف ميل في رحلتها تلك فقط وطارت طائراتها المستكشفة فوق مساحات من البحر مجموع مساحتها خمسة ملايين ميل مربع . ثم جاءت البحر المتوسط فلبثت عليها الدعاية الايطالية فمطتها مرة وأغرقتها أخرى — على أجنحة الأثير كذلك

كانت حاملة الطائرات في بدء عهد الأسطول البريطاني بها سفناً حولت مما بنيت له أصلاً الى حمل الطائرات . ثم أعدَّ المهندسون البحريون قصداً خاصاً لسفن تستعمل لهذا الغرض وحده . وقد يظن ان سفينة ضخمة من هذا القبيل لا بد ان تكون بطيئة السير ولكنها في الواقع سريعة تزيد سرعتها على ثلاثين ميلاً بحرياً في الساعة ولا غنى لها عن هذه السرعة ولا عن سهولة تحريكها لأن سرعتها عامل عظيم الشأن في قدرة الطائرات على الارتفاع عن سطحها أو النزول عليه في مدى ضيق

طائرات الاستطلاع وأوصافها

والطائرات التي تحملها من الطائرات البرية ، التي تستطيع ان تحط على البر أو البحر لأهبة ما وهذه قليل ، وقد تكون من الطائرات البحرية وذلك لأسباب فنية متعددة من حيث الارتفاع في الجو أو النزول على سطح الماء . فالبرية قديمة في جو عاصف وبحر مضطرب فتعجز اذا كانت مائية عن الارتفاع عن سطح البحر او النزول عليه . ومنها ان الطائرات المرتفعة من سطح الحاملة أسرع ارتفاعاً منها لو حاولت الارتفاع من سطح البحر . والسرعة عنصر أساسي في قدرتها على الدفاع أو الهجوم

وتختلف أصناف الطائرات التي تحملها حاملات الطائرات وفقاً للغرض منها . فاذا كانت للاستطلاع والاستكشاف كانت من نوع معين وإذا كانت للاشتراك في حماية القوافل البحرية كانت من نوع آخر . وإذا كانت لمهاجمة السفن الحربية الكبيرة كانت من نوع ثالث وهذه الطائرات الأخيرة هي التي تهمنا بوجه خاص في هذا الفصل لأنها استعملت في الاغارة على قاعدة تراندو وأحدثت ثلماً عظيماً في ثلاث بوارج ضخمة وأغرقت طرادين وسفينتين مساعدتين

اذا ألقيت قنابل من الجو على سطح بارجة حديثة كالقنابل التي تلقيها الطائرات البرية على المطارات والأهداف العسكرية فالغالب أن ذلك لا يؤثر فيها تأثيراً يذكر لأن درع السطح من الصلب السميك ملتين

ولذلك تستعمل طائرات تستطيع ان تقذف البوارج «بطرابيد» على غط «الطرابيد» التي تقذفها بها الغواصات فتصيبها عند خط الماء أو تحته حيث تكون بادية المقتل . وهذا عمل يحتاج الى جرأة عظيمة وإحكام تام . لأن الطائرة التي تحمل الطربيد لا تستطيع أن تلقيها من على فاذا فعلت غاصت الطرابيد في الماء .

ولكن عليها أن تنقض من على قد وصلت الى ارتفاع يسير فوق سطح الماء وعلى بعد لا يزيد الف قدم عن الدائرة المقصودة اتخذت الطائرات وضع سطحيّ في أثناء سيرها بالسرعة — وهذه الطائرات أجهزة خاصة تمكنها من ذلك — وتلقي صريدها في الماء فكأنه أطلق من غواصة على سطح الماء فلا يصطدم بالماء فاذا اتخذ سيره فيه اندفع بقوة محركه الخاص الى الهدف اذا أحكم توجيهه

والطريد الذي تحمله هذه الطائرات مثل طريد الغواصة الا انه أصغر قليلاً منه. وقد سنت للاسطول البريطاني طائرات خاصة للهوض بهذا العمل تعرف باسم « بلاكبورن سكوا » وهي على المرجح التي أغارت تلك الغارة الموفقة على قاعدة تارانتو يوم الاثنين ١١ نوفمبر ١٩٤٠

وهناك طائرات أخرى تابعة للاسطول تحميها السفن الحربية الكبيرة والمتوسطة وتقذف في الجو — لعدم وجود سطح جوي عليه قبل الارتفاع — بجهاز خاص يشبه المنجنيق القديم

وللاسطول قواعد جوية لتدريب الطيارين وغيرهم ولكنها تسمى باسم السفن لأنها تابعة للاسطول. وقد ضحك الانكليز منه شدتهم عندما أذاعت المحطات الألمانية من أشهر ان الطائرات الألمانية أغرقت سفينة حربية بريطانية تدعى « كنترل » لأن « كنترل » اسم يطلق عندهم على احدى هذه القواعد

٢ — اتجاهات الحرب الجوية: مباراة بين المخترعين

الحاجة الى البحث العلمي

في منتصف سنة ١٩٣٩ نشر الخبير الحربي الاميركي الكولونيل بيدجر ليوت كتاباً عنوانه « قنابل تنفجر في الجو » وصف فيه الحرب الجوية الحديثة من نواحيها الفنية. وقد قاله فيه ان تفوق دولة ما في القوة الجوية قد يتطلب دائماً ظهور طراز جديد من الطائرات يعتمد عليه هذا كما حدث غير مرة في الحرب العالمية الماضية أو ابتكار خطط جديدة لاستعمال الطائرات كما حدث عندما ابتكر أسطول الغواصات سراً في أوضاع معينة

وقال في مكان آخر من كتابه « ومما يتعلق بهذا الشأن كثير وجود هيئات علمية منظمة للبحث العلمي الصناعي . ولست في وسع الكاتب ان يغالي في قيمة هذه الهيئات وذلك لأن علوم هندسة الطيران تتقدم تقدماً حثيثاً فالتخلف في مضمار الاتقان او الابتكار قد يكون الباعث على الهزيمة . واذا كان البحث العلمي الصناعي في شأن محركات الطيران والأساطيل فليس سلاح الطيران على حدة

ويلوح لنا مما سمعنا ونقرأ خبراء الطيران في مختلف الأمم الكبيرة ان الاتجاه الرئيسي في

الحرب الجوية الآن الى ابتكار اشكال جديدة من الطائرات او طائرات تتصف بمزايا لم تعهد من قبل لكي تتفوق على الطائرات المستعملة الآن . وجميعهم يسلم تصريحاً أو تلميحاً بأن المرحلة الاولى من الحرب الجوية بين المانيا وبريطانيا انتهت بفوز بريطانيا اذ عجزت المانيا عن انتزاع لواء سيادة الجو فوق المانش وبريطانيا من سلاح الطيران البريطاني وذلك لأن مزايا الطائرات البريطانية من الوجهة الفنية عوّضت قلة عددها ومكنت رجالها البواسل من انزال خسارة فادحة بالطائرات الالمانية المغيرة على بريطانيا نهاراً . فخبراء بريطانيا واميركا يقولون ذلك صراحة وخبراء المانيا وايطاليا يشيرون اليه ضمناً اذ يقولون — على ما جاء في رسالة لمكاتب صحيفة «كرستيان سيانس مونيتور» الاميركية — ان الطائرات الجديدة المنتظرة ستمكنهم من انتزاع لواء السيطرة الجوية في السنة القادمة . فاذا لم تتح لهم فهم يستطيعون على الأقل ان يمنعوا بريطانيا من تقلده

ولذلك يغري الالمانيون أنفسهم باحتمال تمكنهم من غزو بريطانيا في الربيع القادم إذا ثبت ان مزايا طائراتهم المنتظرة تتيح لهم السيطرة على جو المانش والجزائر البريطانية وهو ما سعوا اليه في شهري اغسطس وسبتمبر الماضيين وعجزوا عنه . ولكن خبراء الأميركيين يرون أن تعديل الأساليب الصناعية لتوافق صنع الطائرات الجديدة صنعاً واسع النطاق ليس بالأمر السهل ولا يمكن أن يحقق في أمد قصير وهم أخبر الناس بالصناعة الواسعة النطاق ولا سيما صناعة السيارات وما يشبهها

وعلى كل حال فالطائرات الجديدة لا يمكن ان تعتبر طائلاً حربياً فعالاً إلا بعد تمتحن امتحاناً عملياً في القتال

الغارات الليلية وصفرالها

ويقول خبير الطيران الانكليزي اوليفر ستيوارت ان إحجام الألمانيين عن الاغارة على بريطانيا في النهار بعد ما اخفقت قاذفاتهم ومطارداتهم في التغلب على طائرات «السبتفير» و«الهاريكين» أو مساواتها حملهم على سلوك طريق الاغارات الليلية . وما يجيء من طائراتهم في النهار يجيء على ارتفاع عظيم فيلقي قنابله ويفر في سرعة عظيمة . وهذا في رأيه يشير الى أن علماءهم ومهندسيهم يوجهون عناية خاصة الآن الى صنع طائرات تتصف بالقدرة على التحليق تحليقاً عظياً والطيران بسرعة فائقة وإعدادها خاصة للاغارة في الليل

يقابل هذا أن علماء الانكليز ومهندسيهم يجب أن عالجوا مشكلتين أولاهما مقاومة الغارات الليلية المركزة . وثانيتهما إتقان صنع الطائرات القاذفة التي تستطيع أن تطير مدى بعيداً بأكبر حمل من القنابل . ويجب أن نتذكر أن علماء الانكليز تمكنوا من ابتكار الحل الموافق لكل مشكلة حربية واجهوها حتى الآن مع أن حل كل منها بدا متعذراً عند ظهورها . فحلوا مشكلة الفهم الاضطجعي في هذه الحرب بسلك مكهرب

يعدل الفعل المغنطيسي الذي يتصف به حديد السفينة فلا يجذب إبرة البوصلة وكذلك يحول دون إنفجاره . وفي الحرب الماضية وجدوا حلا لمشكلة النواسات بانشاء القوافل وتجهيز المدمرات بمقابل الالغام

ويقال أنهم يجربون الآن وسائل ابتكرت لمقاومة المغنطيسات في اقبل وروت الصحف الأميركية أن الطيارين الألمانيين وصفوا مناطق معينة في إنكلترا بأنها «مناطق حامية» إشارة منهم الى أن الاغارة الليلية عليها تعرضهم لما ليس في حسبانهم . فاذا نجحت هذه الأساليب بعد التدقيق في امتحانها عم استعمالها

طائرات بعيدة المرى

أما الطائرات المضيئة المدى فهي سلاح بريطانيا في الهجوم على منابع القوة الحربية الالمانية والايطالية . وقد كانت المسافات بين بريطانيا ومراكز الصناعة الألمانية والايطالية بعيدة فكل اتفاق يتيح صنع طائرات أطول مدى من الطائرات المستعملة الآن يزيد في قوة هذا الهجوم على شرط ألا يكون طول المدى على حساب مقدار ما تحمله هذه الطائرات من قنابل . وبراعة الانكليز الفنية مشهورة . ومن حسن الحظ أنهم يتعاونون مع العلماء والمهندسين الأميركيين . وقد شرع الأميركيون في صنع طائرات من أطرزة مختلفة يقال إنها تفوق معظم الطائرات المستعملة الآن . ومن المبادىء الجديدة التي بدأوا يجربونها مبدأ اذا صح ما يتوقع له جعل القاذفات أطول مدى وأسرع مما هي الآن بقدر ان ينقص حملها من القنابل

يتضح من القليل الذي قلناه في ما تقدم أن التفوق الجوي الآن للطيران البريطاني . وان كان لا يبلغ درجة السيادة التامة في الجو . وان مستقبل الحرب الجوية يقرر الآن في دوائر البحث العلمي وما قد تسفر عنه ابحاث والتجارب من مزايا جديدة تتصف بها الطائرات المنتظرة من الفريقين

فيتامين ب وهرمونه أو عنبر الرحم

أثبت الدكتور الكسندر أحد أطباء مدينة بوسطن الأميركية أن فيتامين ب ١ ب) شأناً خاصاً في حماية جدران الأوعية الدموية مما يلم بها في بعض حالات الزهرية ووصف تجاربه التي انتهت به الى هذه النتيجة في رسالة تلاها على الجمعية الاميركية لعلماء الباثولوجيا والبكتيريولوجيا في اجتماعها الذي عقد حديثاً في مدينة سبرنج

وجد الدكتور الكسندر أن الحمام الذي يجري على هذا الفيتامين يصاب بمرض يشبه ما تصاب به الدجاج المدجن المكحول من الهواء بصحبة زرق . ومن أثر مرض هذا المرض تتكس جدران الأوعية الدموية . فكل صمام الحمام محتوياً على جميع أصناف الفيتامين وخالياً من هذا الصنف الخاص المسبب لهذا المرض واذا كان صمام الحمام محتوياً على هذا الفيتامين

وهذا من أشاف الفلك الأخرى فإنهُ يصاب بشتى الأمراض التناسلية التي قد يصاب بها الانسان الذي

وقد كان العلماء يعرفون قبلما

... ب) بصون العصب ويقي المرء من «التوربنس» أي التهاب العصب فثبت الآن من تجارب الدكتور اسكندر في جامعة يحوي دون تكس أوعية الدم كذلك وتكثر مقادير صغيرة منهُ لذلك

على المراصد لرصد الشمس

عني الاميركيون بانشاء مرصد في الجبال الصخرية ولاية كولورادو على ارتفاع ١١١٣٨ قدماً والغرض من انشائه على هذه القمة ضمان صفاء الجوّ ونقاوة الهواء من دقائق الغبار وقتاً كافياً لرصد الدقيق أما الاعمال الهندسية التي ينتظر ان ينجه اليها عمله المرصد بوجهٍ خاص فهي رصد منظر لأكليل الشمس وهو تلك الهالة اللؤلؤية التي لا تشاهد إلا عند ما تكتسف الشمس كسوفاً كلياً

وتعدّ جبال خاصةً لدراسة اكليل الشمس يسمى اكسر ... وتجراف ... وهو الجبل الذي من نوعه في ... الجديد والثالث من نوعه في العالم ... يستطيعون ان يصنعوا كسوفاً في أن يجعل ضوء الشمس كما يحجبه ظل القمر في الكسوف الطبيعي ثم يدرسوا ... الضوء حتى ... حجبه . وهذه لا تشبه لأن ... شدة الوهج ... الهواء

وسيكون المرصد الجديد — كما رصد إكليل الشمس يوماً يوماً لهُ فوائد عملية علاوة على الفائدة النظرية ومنها التمهيد لفهم الأعاصير الكهربائية التي تحدث اضطراباً في المواصلات الكهربائية ثم التنبؤ بها قبل وقوعها

ويرى كذلك أن رصد كلف الشمس وأشعتها المتدلعة وإكليلها وما بين هذه الظواهر من صلة لابدَّ ان يفضي الى فهم أدق حالة باطن الشمس وما لهذه الظواهر من تأثير في الأرض وجوّها

... أقرب الكريبات الاميركية

... ساكن ... د الجنوبية ... سافة في حدود ... ستين ... ب الذي ... كتلتين في ... ركبة و ... ندُّ الى عصر الايوسين قبل ٣٠ الى ٤٠ مليون من السنين. ... هركيمر

ويجاورها في ذلك حيوان ... لا يسوم ... وهو حيوان تدبي اميركي من ذوات الكيس ... وينفاوت حجمهُ من حجم فأر الى حجم

الحرية وعلم الحياة

يغلب على الذهن ان الحرية فكرة سياسية اجتماعية ولذلك يندر من يتوخّى النفوذ الى ما ورائها من حقائق لها أساس بيولوجي . ولعلّنا نستطيع ان نحدّد الحرية من الناحية البيولوجية بقولنا « انها حرية الحيوان في ان يتصرف وفقاً لدافع فطرته او غريزته » . وانطلاق حرية الحيوان من قيود بيئته يستتبع لهُ عندما يتوقف عن ملاءمة نفسه لبيئة ويشرع في تعديل البيئة وفقاً لحاجته . واذا صحّ ان بعض الحشرات والحيوانات استطاعت الى حدّ ما ان تفوز بقسط من السيطرة على بيئتها ، فالانسان استطاع ذلك وحدهُ دون غيره من الحيوانات العليا

***

فما هي المراحل التي اجتازها الانسان في طريقه الى هذه السيطرة ؟

أولاً — تخلّى أسلاف الانسان عن المبيتة في الشجر والاعتماد في غذائهم على الأوراق والجذور والثمار وغيرها . ولما كان الجانب الاكبر من هذه المواد غير مقترن بكمية وافية من الماء فقد كان الحيوان يحتاج الى مضغ مقادير كبيرة منها ليفوز بالقدر الذي يحتاج اليه من الغذاء والى إزالة ما يبقى منها في الطعام الهضمي — وهو كثير — بالتبرّز على الفاصل

ثانياً — تلا ذلك انتصاب القامة وما صحبهُ من المشي على القدمين ، فانطلقت بذلك الذراعان لاستعمالهما في الأكل واللمس والمسك ثم لصنع بعض الأدوات التي تقتضيها الحاجة

والمبيتة على سطح الارض أفسحت المجال أمام النوع الحيواني الذي نشأ منهُ الانسان ، لأن الأرض على اطلاق الفنن أفسح من الغابات ، وهذا مكّن تلك الحيوانات من التحول من غذاء نباتي الى غذاء شامل . فأضيف السمك واللحم الى الأوراق والجذور والثمار . والسمك واللحم غذاء تتركز فيه الطاقة الكامنة فكفاية الحيوان منهُ مقدارٌ يسير بالقياس الى كفايته من الخضراوات ، وهذا أتاح لهُ وقتاً لعمل آخر كان قبل ذلك يستنفده في الاغتذاء بالخضراوات . وكذلك حدث للمرّة الأولى في تاريخ النشوء العضوي ان الحيوان أصبح أمام كثرة وافرة من أصناف الطعام لا يتاح أفضلها وأجودها إلاّ لأسرع الحيوانات واجرإها وأقواها

ثالثاً — تمكّن الانسان من تحقيق المرحلة الأخيرة في هذا التحرّر من قيود البيئة وذلك بتدجينه أصناف النبات والحيوان وتكثير أصنافها وفقاً لرغبته بحملها بذلك على ان تعمل لهُ ما يريدها ان تعمل . ومما هو جدير بالملاحظة في هذا الصدد ان الانسان لم يطبق عقالهُ من قيود البيئة إلاّ باخضاع جانب كبير منها لمشيئته ومقتضيات حاجته . فان حرية البيولوجية بهذا المعنى لا تحقق إلاّ لأسمى حرية الحيوانات والنباتات وغيرها من مخلوقات البيئة التي يعيش فيها

السكر والنشاط العضلي

اذا نقص مقدار السكر في الدم عن حد معين أصيب الجسم بالاعياء لأن احتراقهُ مصدر من مصادر الطاقة الحيوية . ومن أهم وظائف الكبد تركيب المواد النشوية ومنها السكر وتوزيعها على الجسم عند ما ينقص مقدار السكر في الدم . ولكن ماذا تصنع أجسام الحيوانات غير الفقارية ؟ مادة تصنع النحلة مثلاً وهي متصفة بنشاط عضلي وليس لها كبد تصنع السكر وتخزنهُ ثم توزعهُ عند ما يشتد النشاط ؟ ومع ذلك فالنحلة تستنفد مقداراً كبيراً من الطاقة فتطير في مدى ربع ساعة مسافة ميلين ونصف ميل أو نحو عشرة أميال في الساعة ، فتحرك في أثناء طيرانها عضلات الجناحين ثمانية عشر الف حركة . وكذلك عضلات الصدر والطاقة التي تستنفدها لا تستعمل لتحريك جسمها فقط ووزنه نحو ٧٥ ميلغراماً بل لتحريك حمل يتراوح من ١٠ ميلغرامات الى ٨٠ ميلغراماً كذلك

وقد أجرى الأستاذ بنس (Benedict) — على ما روي في مجلة «سكري الاكتشاف» الانكليزية — تجارب غرضها تحقيق مقدار السكر في جسم النحلة فوجده في المعدل أعلى منه في سائر الحيوانات التي شملتها تجاربه ولكن هذا المقدار متفاوت وفقاً لحالة الفسيولوجية والعمر والتغذية وحالة الجو وحرارته

ثم ظهر لهُ ان مقدار السكر المتاح لتوليد الطاقة يزداد بازدياد حركة الأجنحة . وأخيراً ان النحلة تستمد هذا السكر لتوليد الطاقة من العسل المخزون في جسمها لأنه عندما أزيلت غدة العسل أو «معدة العسل» أصيبت النحلة بالاعياء . فهي لا تستطيع أن تطير الاَّ اذا كان السكر متاحاً لها

اختراع الطائرة

ذاع في وسط عاصمة الولايات المتحدة الاميركية ان الحكومة بحثت لربط باخرة ست وعشرين من طراز الاميركية الضخمة مشهورة بوصف «اقلاع طائرة» وهي عبارة عن مزلقات وزن كل منها ٣٠ طناً والمسافة بين طرفي جناحيها ١٥٠ قدماً تسيّرها اربعة محركات قوة كل منها الف حصان وتقلع ثلاثة آلاف ميل وهي تحمل حملاً كبيراً من القنابل ، علاوة على ما تحمله لمدافع ورشاشات وتتسع لاحد عشر رجلاً

ومن الخبر ، هذه الطائرات «منظار» يستطيع قاذف القنابل في الطائرة أن يعتمد عليه في تسديد قنابله الى الهدف المقصود ولو كانت الطائرة على ارتفاع عظيم فوق سطح الأرض . ومخترعهُ [illegible] احد كبار المخترعين الاميركيين وله شركة في اتقان صنع الادوات الدقيقة [illegible]

وجاء في مجلة رسالة العلم الاسبوعية الاميركية انهُ من المنتظر أن تصنع مصانع طيران في اميركا قدرة على صنع ٢٥ الف طائرة في السنة ابتداءً من ديسمبر ١٩٤٠

علاج داء الصرع : مادة عجيبة

عرض الدكتور هورد فايج على « جمعية طب النفس الاميركية » قصة شاب قد تكون اصابتهُ وعلاجهُ مستهلَّ عهد جديد في طب الأمراض العقلية وخاصة داء الصرع (epilepsy)

« يوجين » شابٌّ في الثالثة والعشرين من عمره قضى سبع عشرة سنة منها وكأنهُ مصاب بنوبة صرع مستمرَّة . ولكنهُ عاد سويًّا الآن فلا يصاب بها، وذلك بفضل عقَّار يدعى ديلانتين Dilantin . ولا يقلُّ تقدمهُ العقلي عن تقدمهِ الصحي بعد علاجهِ هذا

كان يوجين الى ان تخطَّى السنة السادسة من عمره صبيًّا سويًّا . ثم بدأت نوبات الصرع تنتابهُ من النوبات الخفيفة الى النوبات العنيفة التي يكثر فيها الزبد على الشدقين وغير ذلك من الاعراض . وقضى السبع عشرة سنة الثانية من عمرهِ على هذا المنوال

فولج اولاً بجرعة من الديلانتين يوم ٨ نوفمبر سنة ١٩٣٩ فلم يصب بعد ذلك بنوبة صرع واحدة . ولكنهُ كان يتناول جرعة من هذا الدواء يوميًّا . وقد يضطرُّ الى مداومة تناولهِ يوميًّا اذا لم يحدث فيهِ خللٌ فسيولوجي أو هستولوجي يفعل هذا الدواء بعيده سويًّا بغير تناوله . وكان عند ما فحص عمرهُ العقلي بحسب مقياس الذكاء المعروف بمقياس « ستانفورد بينه » في ٢٩ نوفمبر من السنة الماضية يبلغ ست سنوات (سن عقلية) فعدت سنهُ العقلية بعد معالجته بضعة اشهر بالديلانتين عشر سنوات . وكان في خلال ذلك يتلقى مبادىء التعليم على سيدة تدعى المس فرمن فتقدم تقدماً سريعاً في الفهم والمعرفة مما يدلُّ على أن مادة الدماغ لا تتكس بفعل داء الصرع

وتقدمهُ في المعرفة سار جنبًا الى جنب مع تقدمهِ في آداب السلوك والبراعة في الرياضة وغيرها

ومما يؤسف لهُ ان مجلتي خلاصة العلم ورسالة العلم الأسبوعية (اغسطس ١٩٤٠) نقلتا هذا الخبر عن بيان اذاعهُ قلم المطبوعات الطبية في وشنطن ولم تصفا تفصيلاً هذا العقَّار المعروف باسم « ديلانتين »

ماء البحر ملح ناقص

ملح الطعام الذي نستعمله كل يوم هو مركب يحترق في الماء والكحول وهو عازل جيد . مع ذلك فلا غنى عن ملح الطعام لحياة الحيوان . ولا يخلو ان الخامض الابولي الكلوريدي والصودا الكاوية من أشد السموم فعلاً تأكلاً ومع ذلك اذا مزجت مقادير معينة منهما تحولا الى محلول لا يؤذي فرامة الذوق والشم . ان الملح الصخري أقسى من الملح البحري والكلس يذوب في الماء . ويساعد على تحضير « الخيلاتي » والكلس يذيب الجلد ويحفظ الطعام من الفساد والكلس يقتل البراغيث ويطرد الفئران (أي يبيدها) والكلس يصنع الحديد

تحرير انتخاب روزفلت

تمت انتخابات الرآسة الاميركية يوم الثلاثاء الموافق لليوم الخامس من شهر نوفمبر ١٩٤٠ وكان المرشحان الكبيران الرئيس روزفلت عن الحزب الديمقراطي والسر ولدل ويلكي عن الحزب الجمهوري . ففاز الرئيس روزفلت باكثرية كبيرة في مجمع الناخبين بلغ ٤٦٧ صوتاً من ٥٣١ صوتاً . فجدّد انتخابهُ فهو أول رئيس في الولايات المتحدة الاميركية أنتخب للرآسة ثلاث مرات

كان انتخابهُ الاول في نوفمبر سنة ١٩٣٢ وتقلّد الرئاسة في مارس ١٩٣٣ ثم جدّد انتخابهُ في نوفمبر سنة ١٩٣٦ ونصّب في ٢٠ يناير ١٩٣٧ وانتخب ثالثة في نوفمبر ١٩٤٠

ثم ان الدستور الاميركي لا يحظر انتخاب احد للرآسة أكثر من مرة وقد انتخب فريق كبير من الرؤساء مرتين منهم في القرن العشرين الرئيس ودرو ولسن اذ انتخب اولاً سنة ١٩١٢ وجدّد انتخابهُ سنة ١٩١٦ ومنهم ثيودور روزفلت مع انهُ لم ينتخب رئيساً مرتين . بل انتخب وكيلاً للرئيس في سنة ١٩٠٠ ومات رئيسهُ خلفهُ ثم جدّد انتخابهُ رئيساً في سنة ١٩٠٤ وعند ما حاول الفوز بالرآسة مرة ثالثة سنة ١٩١٢ انشق الحزب الجمهوري وفاز بالرآسة ولسن مرشح الديمقراطيين

الذهب في مصر القديمة

في أوائل خارطة عرفت حتى الآن وهي التي وجدها (دروفتي) في طيبة إشارات متعددة مكتوبة بالخط الهيروغليفي تدل على وجود مناجم في الصحراء الشرقية بمصر وتختار هذه الخارطة على رسم بطلمي سيتي الأول ملك مصر الذي رجح انهُ حكم من سنة ١٥ ق . م . ووجدت النقوش على جانب مقصورة (هاتور) التي عثر فيها على وجود الذهب في عهد رمسيس الثاني وهذه النقوش تشير الى وفرة الذهب في مصر ثم تصف الذهب وإعداده على الخارطة المصرية القديمة أمتدت على وجود المناجم القديمة خلفة التي بدأت

اشارة عنها فأعيد فتحها في معظم الأحيان

تقع هذه المناجم في المنطقة الجبلية بين وادي النيل والبحر الأحمر . وقد تتبع المصريون القدماء عروق المرو (الكوارتز) المحتوية على الذهب الى أعمق حفر وكانوا يسحقون المرو المحتوي على الذهب بمطاحن من حجر البورفيريت الصلب ويغسلون المرو عن الذهب بغسله على ألواح مائلة . وقد عثر المنقبون على أوان وحلي من الذهب الخالص جمع عهدها الى عهود قدماء المصريين

وما ذكرنا ما تقدم بتصرف يسير عن فصل لزوة مصر للعلامة الاستاذ رياض حنفاوي في كتابه « أحاديث العلوم »

وفيات الاعلام

توفي في اثناء الشهر الماضي (١٣ نوفمبر) المغفور لهما حسن صبري باشا رئيس الوزارة المصرية ويونس صالح باشا وزير الدفاع (٢٧ نوفمبر). وكاي پتمن رئيس لجنة الشؤون الخارجية في مجلس الشيوخ الاميركي وكان من أقوى أنصار تعديل قانون الحياد رغبةً منهُ في مساعدة الحلفاء. ولورد ودرمير شقيق لورد نورثكليف وصاحب جريدة الديلي مايل وما يتصل بها من صحف كثيرة في انكلترا. ولورد جرايجاثون رئيس وزارة الصلح في شمال أرلندا. اما المستر تشمبرلين فقد وقفنا على سيرته فصلاً خاصًّا في باب سير الزمان

وفاة العالم الصهيوني مشنكوف في الاسكندرية

قضى فجأة بالاسكندرية منذ أيام أحد كبار العلماء الذين أسدوا الى الانسانية أجل الخدمات وهو العالم الالماني الشهير، طريد النازية، الدكتور هولدشنكي

ولقد كان هذا النطاسي الكبير أول من استكشف علاج مرض الكساح Rachitisme فقضى نحبه أثر عملية بتأثير ضغط في الدم

أتا في أيامنا هذه ننسى سريعاً مآثر هؤلاء الناس الذين قضوا حياتهم في سبيل إنقاذ الانسانية ولكن لايجوز لنا أن ننسى هؤلاء الصبية الذين يبعث مظهرهم على الاشفاق من شحوب بشرتهم وعُوج أجسامهم والتواء سيقانهم هؤلاء الصبية ذوي البطون المنتفخة والاسنان الصفر، وتلك هي أعراض مرض الكساح، موضع رهبة الامهات وكان منتشراً في أنحاء العالم خصوصاً مدن شمال أوربا الكبرى حيث إكتظت بهم المستشفيات

فبعد دراسة عميقة قام بها الدكتور هولدشنكي تمكن من التغلب على هذه الآفة الاجتماعية بالعلاج بواسطة الأشعة التي فوق البنفسجي، وهذه الأشعة تنفذ خلال الجسم فتؤثر فيه حتى تكسبهُ ما يعوزهُ من فيتامينات لازمة لبناء العظم بناء سويًّا

ولم يقف هولدشنكي عند هذا الحد بل قرر الاحتياطات اللازمة للوقاية من هذا المرض أيضاً

ومنذ ذلك الحين ذاع صيت هذا العالم الكبير وانتخب عضواً في الجمعيات العلمية وحمل أشرف الأوسمة وأرفعها ولكن النطاسي الكبير ظلَّ في حياته محمولاً بعده عن حب الظهور ورغبته عن الزهو، حتى قذف به كابوس النازية بعيداً عن وطنهِ وأهلهِ وبيته ومكتبته الكبرى التي حوت أنفس الكتب ومعرض صوره النادرة الذي يرجع الى الثناء روحه الجميلة الى أسرة من كبار المصورين. فأقام بالاسكندرية الى أن مات فقيراً منذ بضعة أيام بعد أن أذل العالم أجمع

فالى أرواح العلماء جميعاً رحمةً ورضواناً

محمد مظلوم الشامي

مكتبة المقتطف

شعوب وآداب في نظر أمين الريحاني [1]

كنت في الثانية عشرة من عمري عند ما سافرت أسرة الأدب إلى الولايات المتحدة. فلم أكن أعرف غير الشيء اليسير من اللغتين العربية والانكليزية. وما كان في ذهني من العرب وأخبارهم غير ما كانت تسمعهُ الأمهات في لبنان صغارهن «هس جالبدوي!» والبدوي والأعرابي واحد إذا رأت الأم «بعبعاً» تخوف به أولادها

شجرت وطي وفي صدري الخوف ممن أتكلم لغتهم وابغض من في عرقٍ في شيء من دمهم. والبغض والخوف هما توأما الجهل

أما الأمة الافرنسية فما كنت أعرف من أمم الأرض سواها، ولكنها معرفة مطوّسة كانت لمدارس تنشر سواها في لبنان. ولم فرنسا لأعظم أمم الأرض، هي أشرفها وأغناها وأرقاها في مطلب مدنية، وعاصمة النور والجمال — هي المطاروش بين الأمم

كذلك كانت مدرسة بنات أمهاتنا تسقينا السم في كأس الحلوة. إلا أن في كأس المدارس حلاوة زادتنا كرهاً للسم. والأمهات هن كأس الجهل في حنان. والجهل الذي يولد الخوف والبغض، والجهل الذي يولد الحب والإعجاب

أما أميركا فقد كنت في ما عرفته منها بعد أن لأمه وعن المدرسة. تناولت الكأس من يد الوجود وقد ملأها الله لأميركا نفسه ومع ذلك لم تخل من مرارة. فمرارة الكأس الأولى رشفت في بيوت الحي وفي جامع النعمة الشيوعية وفي أسواقه من الجهل الملأى به وما يمازجهُ من الخوف والإعجاب

ثم عشرين سنة في أميركا بعضها بمشاطرة الشعب الأميركي وبحرّيته في الفكر والقول والعمل، وخالطت من نجح بالجهد المادي هناك ومن تكالب في سبيل الحياة الدنيا. وما كان خوفي

---

(١) مقتطفة من مقدمة كتاب «ملوك العرب»

على الامة الاميركية وأنا في ذاك الحين ، في عين نفسي ، قطب كل ما اهتمت به ونقطة الدائرة في كل ما مالت اليه . خفت أن أغلب في ذلك الجهاد ، أشفقت على نفسي من ذاك النكاب

ونسيت فرنسا الا في آدابها ، تلك الآداب التي زادتني ضعفاً وترددا في مضمار الحياة صرفتني عن حقائق الوجود المادية وزينت لي في الفنون الجميلة الحقائق المعنوية . صرت في نيويورك كثيباً يحمل كتاباً وغاوياً من غواة الفنون يمشي في الجنان السومية سهلاً ، فتحت أمامي أبواب من العلم متعددة واتسع مجال الاضطراب والغرور

ولكن الآداب الانكليزية عادت بي الى الشعب الانكليزي نوجدته في أمور كثيرة اخلاقية وإجتماعية ، أرقى من الشعب الأميركي ، أحب الى من كان مثلي . فكارلي في ذا العلم عون على مقاومة تيار الاقتباس والتأمرك ، فلم أخلق مثل سواي من السوريين هناك بأخلاق الاميركيين كلها ، والفضل في ذلك لي هو لفيلسوفهم الأكبر « إمرسون » الذي كان دليلي الأول الى محاسن الانكليز في ما كتبه عنهم وعن سجاياهم(١)

قد عرّفني إمرسون الى كرليل ، وكان كرليل أول من عادني من البحار الى بلاد العرب أجل ، وقد يستغرب قولي إني عرفت بواسطة الكاتب الانكليزي الكبير سيّد العرب الأكبر النبيّ محمد(٢) فأحسست لاول مرة بشيء من الحب للعرب وصرت أميل الى الاستزادة من أخبارهم

ثم في غزواتي للكتب الانكليزية غنمت كتاباً استوقفني ظاهره الفخم وراقني الصور فيه . وما كان العنوان ليشتي بشيء أكره أو أحب . قرأت كتاب « ألا لهمبرا »(٣) فأدركت أن المؤلف يريد بالعنوان الحمراء ، وعرفت أن الحمراء هي لؤلؤة تاج العرب في الأندلس

لله أنتِ أيتها البلاد العربية التي لم يشأ الله أن أجهلك حياتي كلها ، فبشتي إليّ ، وأنا بعيد عنك ، انكليزيًا يعرّفني الى رسولك ، واميركيًا يصف لي محاسن أبنائك

بعد أن قرأت كتاب الحمراء مزج عقلي الأميركية الافرنسية الانكليزية شيء من الخيال الشرقي ، فصرت أحلم بذاك المجد الماضي أحلاماً تمثلي حبًّا فيه بل تمثله حبًّا أمامي

عدت الى بلادي كثيباً يحمل كتاباً ، ورغب في أن يكون الكتاب كتابين وماتة كتاب وكنت لا أعرف من لغتي وآدابها غير اليسير ، فتطلعت في سراديبها دون أن أرى خالي . وبينا أنا أتخبط في دياجي اللغة عثرت على كتاب شعر أنساب الكتاني وسيبويه وكل من علم حرفاً من البصرة والكوفة

---

(١) English Traits ... Ralph Waldo Emerson

(٢) « الابطال » توماس كرليل

(٣) The Alhambra ... Washington Irving

جمعي الله سبحانهُ وتعالى بأبي العلاء المعري بعد أن هداني بواسطة الفيلسوف الانكليزي الى الرسول العربي. قرأت الزوميات معجباً بها، ثم قرأتها مترنحاً ورحت أفاخر بأبي من الأمة التي بغ فيها هذا الشاعر الحر الجسور الحكيم

*

أقصيص هانس أندرسن

هذا بحث من القصص سكيب، وهي العدد الثامن من مجموعة «فنون الادب الغربي» التي تتولى اخراجها لجنة تأليف والترجمة والنشر

يذهب الأستاذ محمود ابراهيم الدسوقي على نقل روائع الأدب الغربي الى العربية مذهباً يذلك فيها أجمل جد، فقد أحوجها الى أمثال هذه الروائع. ولقد نقل عن الانكليزية هذه المجموعة التي تضم أربعاً وثلاثين أقصوصة للشاعر الدنمركي هانس كريستيان أندرسن من شعراء القرن التاسع عشر. كما نقل عن الألمانية رواية «الصراط» للشاعر الألماني هرمان سودرمان وسنكتب عنها في عدد قادم. وذلك في أسلوب أخاذ لهُ الى جانب رصانته رشاقة وخفة ظلّ

والمجموعة التي نقلها عن أندرسن هي من أجمل وأروع القصص التي وضعت لتحرك الخيال الرائع في أذهان الأطفال، وليس من يجهل أثر ذلك في تنشئة الطفل. وأعظم هذا الأثر إن كان مصدره قصاصاً موهوباً كمؤلف هذه القصص الذي كان «يلقي الزهرة فتوحي اليه، ويلقي الصخرة فتلهمه، ولم يجد في الحياة شيئاً غير حيّ» والذي أكسبتهُ أمهُ «بأقصيصها ما حرّك حبه فلاحت له دنيا الجان أكثر حقيقة من عالمه الذي يعيش فيه» حين فقد أباه وترك وحيداً مع هذه الأم «فأكمل صباه في أحضان الدهر، وقسا عليه الزمان فأشعره الرحمة التي تدفق من أقصيصه، وتعرض في حياته شتى الأنماط، فأجاد التشخيص في خرافاته. كان يحيش الحياة فلم تعرف حيناً جموداً، ولم يتصور في شيء جماداً، فجاءت أقاصيصهُ كلها صوراً حيّة من خلق الله، كلها معنى مجسم»

***

هذه المجموعة التي ترجمها الاستاذ الدسوقي عن طبعة كولنز الانكليزية هي خير «كتب هانس أندرسن» يرتاح اليها من أجل شهرته الواسعة، وهي غذاء ومتعة لكل قارىء، لأن ما فيها من سمو الفكرة، وعذوبة السرد، وجمال التصوير يجعلها جديرة بالتمجيد والتقدير، ومن خير ما أخرجت في العربية للناس في أحسن ثوب على يد مترجم بارع بليغ

حسن كامل الصيرفي

مصر القديمة

تأليف سليم حسن — في جزئين يحوي مجموع صفحاتهما ألف صفحة — طبع بمطبعة كوتر بمصر

ثمينا كثيراً قبل الاقدام على مراجعة هذا السفر النفيس . لأن الموضوع واسع النطاق متعدد النواحي ، فلا يجوز لصاحب النظر القاصرة أن يبدي رأياً فيه . ثم ان مؤلفه ثقة في موضوعه ، عالجه دراسة وتدريساً وتنقيباً في مواطن الآثار نفسها ، فناقشة ما يبديه من رأي خاص من شأن العلماء المختصين بمثاله

ولكن هذا التهيب لا يجب أن يحول دون تعريف القراء بكتاب ، هو على ما علم أتمّ كتاب كتب بالعربية في تاريخ مصر القديمة ، وتشمل دراسة تاريخها من العصور السابقة للتاريخ المدوَّن الى آخر العهد الأهناسي . والتاريخ كما تراه مبسوطاً في هذا الكتاب ليس صفحات متوالية من ملوك الأسر القديمة وأعمالهم وفتوحاتهم . بل لا نبعد الحقيقة إذا قلنا ان هذا النوع من التاريخ هو أقل صفحات هذا الكتاب عدداً وشأناً

والواقع أن المؤلف عني بنواحي الحياة في مصر القديمة ، وتطورها من جميع نواحيها ، نواحي المعيشة في البيت ، والأدوات المستعملة في البيت والحقل ، ومنزلة المرأة فيها ، وأسباب التجارة ، والادارة ، وتنظيم القضاء والحكم ، ورتب الجيش ، وارتقاء الحياة العقلية والفنية وما يتبعها من طقوس وعبادات ، وعلم وشعر وتصوير ونحت

فنحن في هذا الكتاب امام لوحة كبيرة تضافرت اساليب البحث التاريخي واستنطاق الآثار والكتابات على رسم صورها ، فاذا مصر القديمة في هذه اللوحة شعب وحياته لا تسلسلا جامداً من الحوادث المتوالية . وقد حوى الكتاب فصولاً كثيرة تنطوي على آراء خاصة بالمؤلف في نواحٍ من تاريخ مصر القديمة توصل اليها بعد معاناة البحث والدرس والتنقيب سنين طوالاً كانت حافلة بالمكتشفات الأثرية خطيرة الشأن

وقف المؤلف الجانب الأوفر من جزئه الأول على دراسة مصر قبل عهد التاريخ . وهو موضوع قلما طرق بالعربية قبل الآن . ومن المؤكد أنه عالجه معالجة وافية كما عوّدنا في هذا الكتاب . وعلم مصر ما قبل التاريخ لم يكن علماً مستقلاً بين علماء الآثار المصرية الى عهد غير بعيد

والعالم ارسلان (١٨٤٥-١٩٠٧) الفرنسي هو أول من أثبت وجوده بعد ما جاء مصر سنة ١٨٦٨ وساح في وادي النيل وجمع من الأدلة ما مكّنه من تأييد رأيه . ومن ثمّ جاء ونعمة وغيره كبار مثل دي مرجان وفلندرز بتري وغيرهم . ويجب أن نخص بالذكر في العهد الأخير جيث لسن برفتون في الحفائر التي قرب مدينة الفيوم . وبحث الأستاذ برشيا في كوم الغاظر . الأستاذ مصطفى عامر بك والأستاذ فتحي في نقادي بين القاهرة وحلوان

والحقبة السابقة للتاريخ تقسم ثلاثة عصور أولها يسمى العصر الحجري القديم وقد استعملت فيه أحجار الظران كما وجدت في الطبيعة مع بعض التهذيب وثانيها العصر الحجري القديم وهو عصر استعمال الحجر المهذب تهذيباً بسيطاً بعد القطع ومنه يتدرج العصر الحجري الحديث وهو عصر الحجر المصقول بعد التهذيب . وثالثها العصر الذي ظهر فيه استعمال المعادن وفي بدايته استعمال الحجر جنباً الى جنب مع النحاس والبرونز لصنع الآلات

هذه العصور وأنواع الآلات التي استعملت فيها وأوصافها وأحوال سكانها في الحياة وبعد الممات خص بها الأستاذ سليم حسن ١٢٤ صفحة من كتابه فصلح أن تكون بحد ذاتها كتاباً نفيساً

وقد كتب الأستاذ سليم فصولاً نفيسة لم يسبق اليها في رتب الجيش والقاب وكذلك في الألقاب القضائية وفي نظام الأوقاف وتقسيم الميراث ومما يستوقف النظر بوجه خاص صفحات عن منزلة المرأة وهو جزء من بحث ضاف في نظام الأسرة وقد ذهب في آخر هذا الفصل مذهباً خالف فيه علماء الآثار المصرية في نسبة الأولاد الى الأم . فقال في صفحة ٥٥١ من الجزء الثاني « ولعل ذلك يكون من مأمن من الخطإ اذا عكست النتيجة التي وصل اليها علماء الآثار المصرية وقالوا انهُ في عهد الدولة القديمة كانت تحفظ مكانة عظيمة الأب والأم اللذين كانا في أغلب الأحيان معروفين . هذا على أن الأب والجد من جهة الأب كانا يذكران غالباً وحدهما ، ولا تذكر الأم وحدها الا نادراً ... والجدة من جهة الأب لم تذكر الا نادراً جداً ولكن لم نشاهد قط أن البنوة كانت تنسب لفرع الأم ... الخ »

ونقل في ما يلي فقرة واحدة عن الملاحة تدل على أسلوب الاستاذ سليم حسن الجامع بين الجزالة ورقة البحث التاريخي في كل ناحية من نواحي الحياة المصرية القديمة قال في الصفحة ٢٢٦ من الجزء الثاني

[illegible] الغوص حتى الآن في [illegible] وقد عثر [illegible] تاريخ [illegible] يرجع عهده الى الأسرة [illegible] ولا [illegible] الأسرة الرابعة اذ يخبرنا حجر [illegible] انه في عصر هذا الملك أعد عدة من بلاد سورية أربعون سفينة تحمل [illegible] الأرز [illegible] وفي معبد [illegible] حجر هذا الحجر عثر [illegible] قد صنعت هذه السفن [illegible] كل منها نحو [illegible] ذراع من خشب الأرز [illegible] الذي كان يجلب من لبنان [illegible] سنة أو نحوها

[illegible] السفن التي كانت تجوب في البحر الأبيض متوسطة [illegible] هذه السفن نحو [illegible] ذراع [illegible] من عهد الأسرة [illegible] كانت هذه السفن [illegible] وهي [illegible] من خشب [illegible] من الجهات [illegible] وفي سوريا [illegible] من عظيم سلطة الدولة [illegible] السفن كانت تجوب [illegible] من ثبوت [illegible] أنها كانت [illegible] الى بلاد [illegible] من جهة أخرى

[illegible] كل ما سبق يتضح جلياً بطلان النظرية القديمة القائلة بأن الفراعنة لم يألفوا ركوب [illegible] المصريين لم يجرؤوا على [illegible] الملاحة الا بعد التسعمائة [illegible] من عهد [illegible] وسنرى فيما [illegible] من جهة وفي [illegible] ملاحتهم في الأعالي [illegible] من جهة أخرى [illegible] سفنهم [illegible] تجوب في شواطئ البحر الأبيض

ومن يقرأ الكتب القديمة يعرف مقدار انتشار هذا الرأي الذي أثبتت الكشوف الحديثة بطلانه. ومما قيل في هذا الصدد وثبت أنه خرافة: « ان هناك أسباباً تمنع المصريين من التوغل في البحر والتجارة مع بلاد التاجاوي » ثم: تكوين مصر الطبيعي » وخوف من أهوال البحر ولصوصه ». وتوسع كذلك بعض المؤرخين في القرن السالف فقال:

« لا بد ان الملاحة كانت تعتبر في حيز العدم في عهد الفترة الاولى من تاريخ مصر » وذلك لان منزله أهلها عن نقل العالم قد منعتهم عن المغامرة في عرض البحار » وأنهم لم يقوموا بالملاحة الا في أواخر الاسرة الثامنة عشرة » ثم قال: « والسبب الذي منع المصريين ان يكونوا ملاحين عظماء هو السبب الذي حال دون عظمتهم التجارية. وفي الوقت الذي كان فيه الفينيقيون يقومون بكل أعمالهم التجارية بطريق البحر مع جميع الدول كانت تجارة مصر محصورة في بلادها وجعلتهم تحت رحمة الاجانب الذين كانوا يقومون بالاعمال التجارية لهم

وقد قات قائل ذلك ان سكان وادي النيل منذ أقدم العهود قد وجدوا في نهرهم منقطع القرين مدرسة عظيمة يتعلمون على يديه أول درس في الملاحة عرف في تاريخ البشر » فقد كانوا يمتطون طوال العام على شاطئيه الخصبين » وكان يضاف اليه ما يجتمع على خوض الماء في كل وقت » ولا يظن ان الملاحة في النيل كانت دائماً سهلة لا يعتورها أي خطر » بل كانت في مدة الفيضان وهبوب الرياح تحفها مخاطر جمة » ولم يكن المصري بالشخص الذي يخاف هذه المخاطر ويحجم عن اقتحامها اذ كان النيل أهم طريق للمواصلات وقد كان لديه المدة لاقتحام أهوال هذا النهر بما صنعه من السفن المتينة التي أخذ في تحسينها على مر الزمن حتى جعلها صالحة لتخطر عباب البحر نفسه. بل ان الملاحة في البحار كانت سلسلة على وجه تام يقوم بها الملاحون في أحسن فصول السنة الملائمة عندما يكون الجو هادئاً والرياح رخاء بالغرب من الشاطئ كما سنتكلم عن ذلك في حينه

وقد ذكرنا فيما سبق انه كان يوجد في مصر موانئ زاهرة غنية على شاطئ البحر منذ عصر ما قبل الاسرات كمدينة متليس (قوفا) التي رمز لها بالخطاف واقترن على لوحة « نرمر » » وكانت أساطيل هذه المدن تقوم برحلات تجارية مع السواحل السورية

على أننا من جهة أخرى لا ننكر ان الفينيقيين كانوا يتجرون مع جزء من البحر الابيض المتوسط قبل ذلك العهد ولكننا نذكر أنهم أساتذة المصريين في تعلم فن الملاحة الذي تفوق هؤلاء فيه » ولدينا براهين ساطعة تدل على أسبقيتهم الامم الاخرى بمدة قرون أكثر مما تدعي المدعي المذكورة قبل ان يكون للفينيقيين شأن في عالم الملاحة البحرية

اذ الواقع أنهم لم يظهروا في هذا الافق للاتي للاتي النصف الاول من الالف الثانية قبل الميلاد » هذا الى ان سفنهم قد بقيت على الطراز المصري

وعلى ذلك تكون النظرية القائلة بأن سفن « منارو » و « سحورع » كانت فينيقية لا أساس لها من الصحة. يضاف الى ذلك ان تمثيل السفن البحرية في معبد « سحورع » الخاري يشير بأجلى مصري، وقد لاحظ العض ان اسم السفينة « كبت » نسبة الى « كبن » ، بلوص بحرية ؟ ، ورأوا في هذا أصل صنع السفينة كانت في حمله إجابة ، ولكن لا يلزم ان نستنتج من هذا ان أهل البر قد تعهدوا بناء سفنهم والملاحة فيها بلوص ، اذ الوارد ان للفظة « كبت » نفسها وضوح ان أول معنى خاص لها كانت تلك التي يرمز لها بلوص او ان هذه السفن قد صنعت من خشب لبنان الذي كان يشجر بأجلى شاطئ بلوص. وهي يرجح ذلك ان السفن التي كانت تمخر عباب البحر الاحمر في أيام الدولة القديمة هي التي تدعى في عهد الدولة الوسطى وما بعده كانت تسمى كبت كبت

وعلى أية حال فهناك حقيقة لا مراء فيها وهي ان المصريين منذ فجر تاريخهم بنوا سفناً وبحروا كانوا يسحبون في البحر. وان البضائع التي كانوا يقومون بها في عهد الدولة القديمة هي الا بضائع تجار نهم الخارجية التي كانوا يقومون بها عن طريق البحر في عصر ما قبل التاريخ » يضاف الى ذلك ان تقدمهم البحري هذا كان نتيجة التجارب التي كانوا يقومون بها في نيلهم وما قاموا به من بناء السفن لحملهم في حاجة الى ان يظهر من خارج في الملاحة

أحاديث العلوم المبسطة

احمد زكي الدكتور — بقلم من أساتذة كلية العلوم بجامعة فؤاد الاول سبق أن نشرت له المقتطف
الاحاديث كتاب في العلوم مصرية — صفحاته ٢٠٦ قطع المقتطف

خير ما نقدم به هذه المجموعة النفيسة من الفصول في العلوم المبسطة هو قول الدكتور مشرفة بك عميد كلية العلوم في حديث الأول قال : — لقد صارت العلوم في عصرنا الحالي ضرورة من ضرورات الحياة فهي لازمة للدفاع القومي ، لازمة لاستغلال الموارد الطبيعية في كل أمة ، لازمة للمحافظة على صحة الشعب ولتنظيم الحياة الاقتصادية والاجتماعية بل هي لازمة لحياة الفرد العادية لا يكاد يستغني عنها في عمل من أعماله اليومية . وإذا كان هذا شأن العلوم وكان هذا خطرها فإذا نحن فاعلون من أجلها ؟ بل ماذا أعددنا لأنفسنا من العدة العلمية وسط هذا الجو الدولي المكهرب وبين هذه الأمم المتحفزة . إن نظرة منا الى أنفسنا كفيلة بان تدلنا على مبلغ تقصيرنا كما انها كافية في توقيت ذاتنا لمعرفة الاتجاه الذي يجب ان نوجه فيه مجهوداتنا »

وبعد ما وصف العناية بانشاء المعاهد والهيئات العلمية في مصر والفائدة العملية التي تجنى من البحوث العلمية قال : — ليست العلوم مجرد حقائق يكشف عنها ونظريات تصاغ وتمحّص وليس انتاجها دائرة معارف متحركة أو قاموساً علميًّا ناطقاً بل ان للعلم طريقة خاصة في التفكير والعمل لها عقلية خاصة تقترن بالعلم وتلزم له . هذه العقلية العلمية تعوزنا اليوم في معالجة كثير من أمورنا وليس من الصعب أن نصف هذه العقلية او أن نذكر مميزاتها . وانما الصعوبة في اكتسابها والدرج عليها . فالعقلية العلمية تتميز بشيئين أساسيين الخبرة المباشرة والتفكير المنطقي الصحيح . فالعلم لا يبني الا على نتائج التجربة المباشرة كما انه لا يسلم بما يتعارض والتفكير الصحيح . وهذان أمران يظنان في منتهى البساطة ولكن الأخذ بهما يحتاج الى الكثير من المران . وان من الاغراض التي نرمي اليها من اذاعة هذه الأحاديث ان تشيع العقلية العلمية بيننا وان تصبح عادة في تفكيرنا القومي ...

وقد هذا وصف الدكتور مشرفة ما تبسيط العلوم من منزلة وشأن في هذا العصر إذ قال « هذا الاتجاه — أي التبسيط في أحاديث العلوم بلغة سهلة خالية على قدر ، يتيسر من المصطلحات الفنية او رموز الرياضة — بين معاهد العلم وبين الجمهور يؤدي ان تفاهم وتعاون يعودان بالخير على المجتمع ، وبدون هذا الاتصال يتحول العلم الى ضرب من ضروب السحر ، ويرى العلماء الى نوع من السكينة الذين تقرأ عنهم في تاريخ مصر القديم

والحق يقال أن هذه المجموعة من « الأحاديث » تحقق الغرض منها على أوفى وجه . فهي علمية في موضوعها وفي المعنية المتبعة عامة ، مبسطة تبسيطاً تسيغه العامة وترضى عنه الخاصة ،

متنوعة شائقة تتفاوت من الكون الى الذرة ، ومن الانسان الى الحشرات ، ومنها ما هو عام شائع في جميع البلدان ومنها ما هو خاص بمصر . وجميع أصحابها ممن توفروا على الموضوعات التي تحدثوا فيها لحقائق الفصول مأخوذة من أبناء بجدتها ومن بنانها أيضاً لأن بين المتحدثين الآنسة سميرة موسى على وموضوعها « على هامش النسبية »

ولولم تشارك الآنسة سميرة في هذه الأحاديث بمقالة الفتاة المصرية المقبلة على العلوم الحديثة لعدناها من توانسي تنظيمها من رجال كلية العلوم لأننا رأينا في زيارة غير بعيدة لهذه الكلية الفتاة المصرية جنباً الى جنب مع اخوانها تشارك في جميع فروع العلوم علماً وعملاً

واخيراً نوصي المحطة اللاسلكية للحكومة المصرية بهذا الجانب العلمي من برنامجها الثقافي . ونؤكد لها ان ما يذاع من محطات العالم الكبرى لا يفوق هذه الأحاديث دسماً وبياناً ، ونرجو ألا تسمح لأحوال الحرب بصرف النظر عنها

*

مجلة « الحديث » والمرحوم اسماعيل أدهم

رحم الله أخي أدهم وغفر له ؛ لقد كان وفيّاً كل الوفاء ، وهكذا قدّر لهُ ان تجد ذكراه على وفائه جزاءه من صديقه الاستاذ سامي الكيّالي صاحب مجلة « الحديث » الغرّاء التي تصدر في حلب . فما أجمل هذا الوفاء !

لم يكد خبر انتحار الدكتور اسماعيل احمد أدهم يصل الى مسامع الاستاذ الكيّالي حتى أعدّ عدتهُ لاصدار عدد خاص بالفقيد العزيز فكتب الى أصدقائه في الأقطار العربية يناشدهم المؤازرة في هذا الواجب الكريم . فلبى نداءه فريق من فضلاء العربية وفضلياتها تناولوا حياة الفقيد وآثاره بالدرس فكان له هذا العدد الخاص الذي صدر في ثمانين صفحة ختاماً لسنة الرابعة عشرة من حياة هذه المجلة الغرّاء فجاء حافلاً بالبحوث الشائقة والدراسات الممتعة من كتّاب لهم مكانتهم الأدبية في مقدمتهم محرر المجلة والأساتذة صديق شيبوب وعبد الكريم علي ناصر ومحمد روحي فيصل ومصطفى عبد اللطيف السحرتي ومحمد عبد الغني حسن . والكاتبتان المبدعتان السيدة وداد سكاكيني والآنسة فلك طرزي وعبد الحفيظ قصار ومؤاد شاكر وبشر فارس وأخو الفقيد ابراهيم أدهم وذلك الى جانب المدامع الحرّى التي سكبها الشعراء ومنهم الشاعران الفنانان الاستاذان عمر أبو ريشة وزكي المحاسني والشاعر المبدع شاكر خوري

ولقد كان من سوء حظ كاتب هذه الكلمة ان وصلت دراستهُ التي وعدها عن صديقه أدهم حين أعدّ العدد او صدر بالفعل بسبب اضطراب المواصلات الآن فلم يشترك في هذا الواجب الا بمرثيته الشعرية . رحم الله « أدهم » وجزى الله « سامي » عن هذا الوفاء خير الجزاء

حسن كامل الصيرفي

ديوان الشبيبي

السيد محمد رضا الشبيبي شاعر عراقي مبدع ذاعت شهرته في الاقطار العربية من قبل الحرب الأوربية العامة السابقة وظلت شهرته تتسع وتنتشر مع الاجلال والاحترام لما يتصف به شعره من رصانة متينة وقوة عارضة وما يتوخاه من اذاعة الوطنية والفضيلة ونشر المكارم فيه

وعنيت جمعية الرابطة الأدبية بالنجف بنشر ديوان هذا الشاعر الفاضل وطبع في مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر بالقاهرة طبعاً متقناً على ورق جيد وجلد تجليداً فخماً فجاء في حلة قشيبة تليق بمقام صاحبه وما حواه من شعر قوي . وقد توهت محطة لندن بالديوان عند الشروع في طبعه . والديوان مقسم الى أبواب الحماسة والحكميات والاجتماعيات والخلقيات والالهيات والوجدانيات والوصفيات والرثاء والمتفرقات وقد بعث صفحاته على مائتي صفحة بالقطع الكبير ومن بديع شعره في رثاء الاستاذ الجبوري بطل النهضة العراقية المتوفى سنة ١٩١٥ قوله : —

قدت نفسك بالامامة فيهم ... فمن الامامة في يديك زمام
شافهتهم بالدين وهو مباسم ... واخذتهم بالسحر وهو كلام
كلم بها ومعجزات مثلها ... عجل المعول وتصفل الانهام
أصلحت شأنهم وكانوا عصبة ... لا الدين يحجزهم ولا الارحام
أيد يؤثلن بالثناء وأنعم ... لك في رقاب المسلمين جسام

وله في ذكرى ابي الطيب المتنبي قوله : —

يا موسم الأدب الجميل رسالة ... لديك يحملها البريد الوافد
عودوا الى الماضي فان عدتم له ... مستهمين فثم مجد عائد
للدرة الاولى يد محمودة ... لا تجحدوها فالشقي الجاحد
والكون مزدرع لجيل حارث ... فالله بينه وجيل حاصد
أعياه ان يجد الفهوض علائم ... وعلى الحياة أدلة وشواهد

ومن بليغ قوله : —

ومشرع ضم بست أرضاه مورداً ... ومرتع ذل لست أفيه مرعى
وأشق أنوري من إطلب السمي لملا ... يتمة صوت الجهالة أن يسمى
اذا رام ان يستشرف الأفق طائراً ... هوى صاغراً أو رام ان يستوي أعمى

وشعر الديوان على هذا الغرار وثمن النسخة منه ٢٥ قرشاً فتوجه اليه الأنظار (م. ر)

المهندس الصغير

تأليف محمد عاطف البرقوقي — ١٢٨ صفحة مزدانة بالصور

ان الغرض من هذا الكتاب الصغير الحجم الكبير القيمة ، تيسير فهم مخترعات النقل البري وما يتصل به من هندسة الطرق وتاريخ البريد ومنافسة السيارات للقاطرات . فقد تعددت مخترعات النقل وتنوعت ، وبعد أن كانت قاصرة على الدواب والعربات في اثير تحطت الى السيارات والقاطرات وغيرها ، وأصبح لكل منها أنواع متعددة ، فمنها ما يسير بالبخار ومنها ما يسير بالبنزين أو الزيت الوسخ أو الكهربا وصارت هذه المخترعات ألزم للانسان من ساقيه فهي من أجدرها بالمعرفة

والكتاب موجه خاصة الى الصغار . ولكن الكبار غير المختصين يجدون فائدة كبيرة فيه واذا كان طلبة التعليم الابتدائي والثانوي والعالي لا يعنون هذا الموضوع في دراستهم فان ذلك يجب ألا يمنعها عنهم بعد التخرج

والكتاب يماشي التدرج التاريخي في إرتقاء وسائل النقل . فنصله الأول يعالج الانسان والحيوان من نواحي السير على الأقدام وحمل الأثقال ونقلها . وفي الفصل الثاني العربات من عهد القدماء المصريين الى القرن العشرين وهو يحتوي على وصف الأنماط المختلفة التي استعملت خلال العصور وصورها . وفي الفصل الثالث السكك الحديد والقاطرات وقد وطأ له بكلمة عن البخار والمحرك البخاري . ثم نجد فصلين موجزين في ترجمة من كان لهما أكبر الفضل في إنشاء السكك الحديد وهما تريفثيك وستيفنسن . وفي آخر الفصل كلمة عن ديزل وقاطراته . وعلى الطريقة نفسها عالج موضوع السيارات . ثم انشاء الطرق وتاريخ البريد

والاستاذ محمد عاطف البرقوقي من خير من يتوفى مهمة اضافة مثل هذه الكتب النفيسة الى مكتبة الصغار باللغة العربية . فالمعلمة العلمية التي يدعو اليها الدكتور مشرفة ويجاريه في الدعوة اليها كل من أدرك منزلة العلم الحديث في بناء الحضارة ، لا تستطيع أن تحققها إلا اذا نشأ صغارنا وبين ايديهم ما يمكنهم من فهم هذه المعجزات الميكانيكية التي تحيط بهم . وترجمة الفضل لا تتم مما نصنع من البرونز والنحاس والأموال إلا اذا عمرت المكتبة العربية بكتب وصحف خاصة بالصغار في الأدب والقصص والتاريخ ومبادىء العلوم والمخترعات . ولذلك ترحب المهندس الصغير أعظم ترحيب ، وبنظيره البحار الصغير ، بمشورة صبر

وإذا نحن خصصنا الاستاذ البرقوقي بالثناء على مايبذله من جهد في تقريب عناصر الحضارة الآلية الى أذهاننا صغاراً وكباراً فيجب كذلك ان نطري مكتبة المعارف ومطبعتها لأنها ترحب هذا الكتاب كما يجب ان يخرج متقن الطبع كثير الصور بثري بالطائفة

فهرس الجزء الخامس

من المجلد السابع والتسعين

٤٥٣ لماذا نحارب ؟ نحن نفسي مقابل

٤٦٠ جائزة نوبل في الكيمياء عن سنتي ١٩٣٨ و ١٩٣٩

٤٦٢ أسباب الانتحار بحث علمي احصائي

٤٦٨ نادا تحبي (قصيدة)

٤٦٩ شعر البارودي — حياته وصورة عصره : لمعالي الدكتور محمد حسين هيكل باشا

٤٧٧ تنسيق الاصلاح الاجتماعي في مصر : لسعادة محمد الشناوي بك

٤٨٥ الطب المصري بين عهدين : لمعالي الدكتور علي ابراهيم باشا

٤٩٠ فضل العرب فيما ادخلوه من النبات وأساليب الزراعة : لمحمود مصطفى الدمياطي

٤٩٢ رابطة اخينا (قصيدة) : لخليل مطران

٤٩٤ في التقنية في الحرب وأساليبها في الطبيعة : لعوض جندي

٥٠١ الأدب الفرويدي : للدكتور ابراهيم ناجي

٥٠٦ نظام ديوان الاستخبار في الهند في عهد المسلمين : لسيد أبو الخير احمد الحسني الهندي

٥٠٩ رحلة في الفضاء من الأرض الى المريخ

٥١٣ سير الزمان * غزوة بريطانيا — ثلاثة مشاهد تاريخية . نابليون تشمبرلن ١٨٦٩ — ١٩٤٠

الخمس العظمى في الخلق الانكليزي : للسر مايلز لامبسون السفير البريطاني

٥٢٥ حديقة المقتطف * البستاني فشاعر الفيلسوف طاغور : لفتها لمحمود كامل حبيب

٥٤٢ المراسلة والمناظرة * شجرة الباذنجان وصيلة التين : لمحمود مصطفى الدمياطي

٥٤٣ [illegible]

٥٤٤ [illegible]